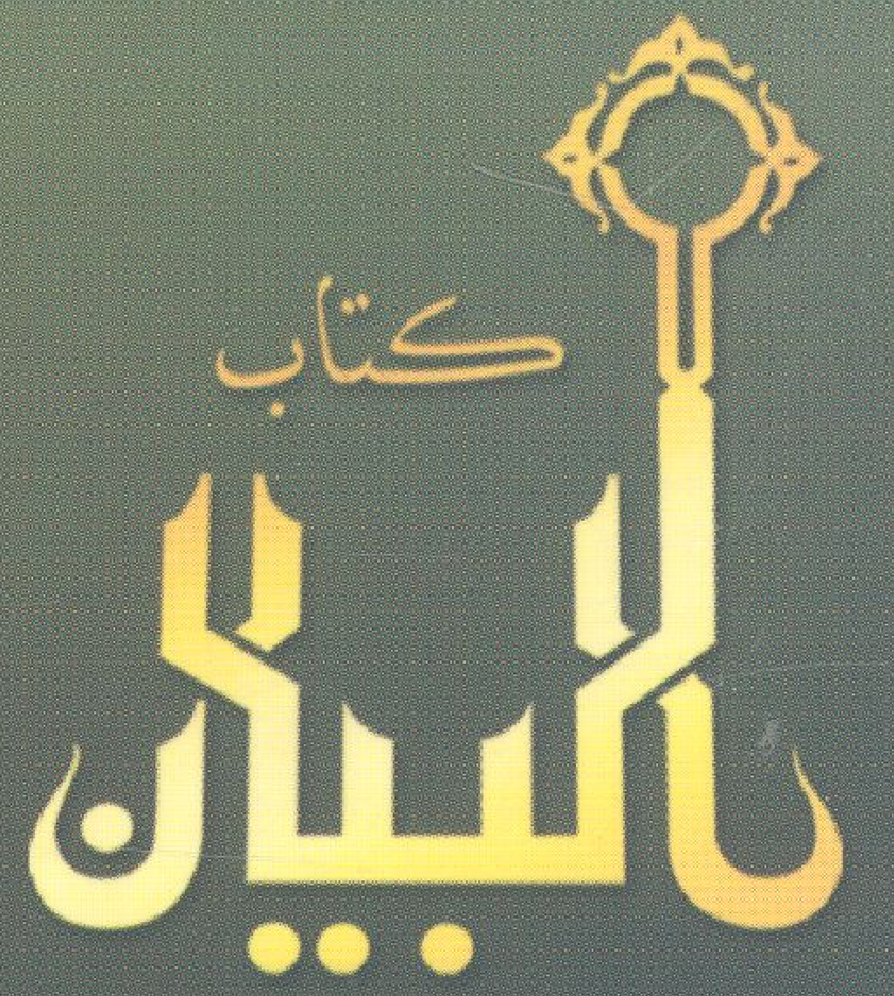
سلسلة تصدر من مجلة البيـان



إلا تنصروه
فقد نصره الله

أ. د. ناصر بن سليمان العمر

إلا تنصروه فقد نصره الله

تأليف

أ. د. ناصر بن سليمان العمر

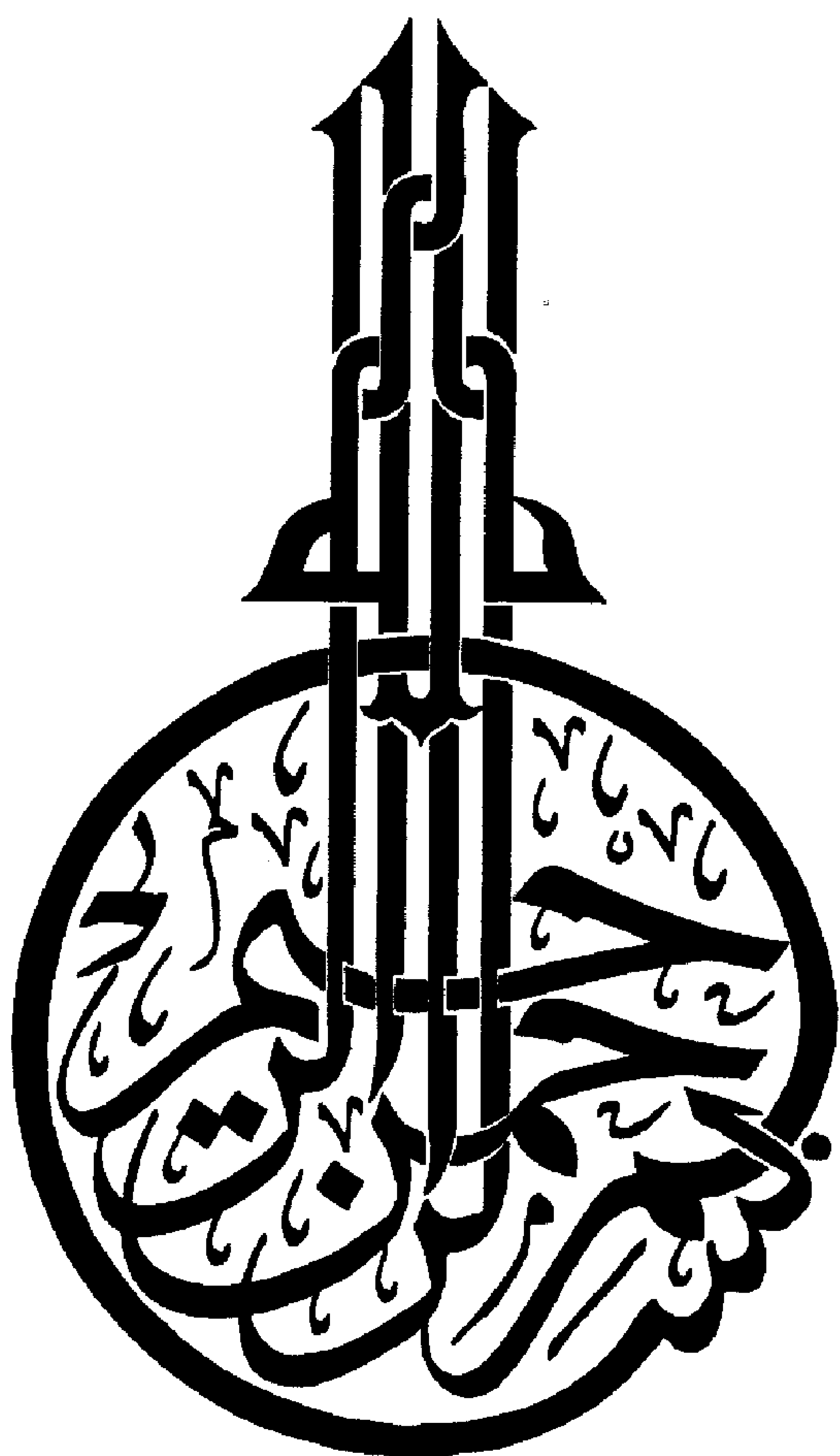
جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

١٣٦١٨ / ٢٠٠٨م


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه والتابعين، وبعد:

فإن من المفيد لكل أمة من الأمم - بعد أن تمر بها أزمة من الأزمات - أن تقف وقفة متأنية؛ تلتقط فيها الأنفاس، وتعيد الحسابات؛ محللة أسباب وقوع الأزمة، مراجعة أداءها حيالها، متداركة الأخطاء التي وقعت فيها، مستلهمة الدروس والعبر التي تكون عوناً لها في مواجهة مثلها إن تكررت، أو مواجهة غيرها من الأزمات.

وقد بليت أمتنا الإسلامية في منتصف العقد الثالث من القرن الهجري الحالي ببلية؛ تمثلت في اجتراء بعض الدنمارك على التطاول على مقام نبينا محمد ﷺ، فيما عرف بواقعة «الرسوم المسيئة»، وهذا التطاول عليه - بأبي هو وأمي - لم يكن الأول عبر القرون، ولم يكن الأول على مقدسات الأمة خلال السنين القليلة الماضية، كما أنه لن يكون الأخير إلا أن يشاء الله، وهذا من الاختبار والابتلاء الذي كتبه الله - عز وجل - على عباده المؤمنين في هذه الدار، قال - تعالى -: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وكما كتب الله - عز وجل - هذا الابتلاء على المؤمنين قدراً، فقد كتب عليهم مدافعته قدراً وشرعاً؛ إذ التدافع بين الحق والباطل، والخير والشر، وأهل الإيمان وأهل الكفر؛ سنة إلهية ماضية، وقدر كوني لازم إلى يوم القيامة؛ ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وليمحص الله الذين آمنوا ويصطفي منهم من شاء، و ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، ولولا دفع الله الكافرين بأهل الإيمان لفسدت الأرض، قال - تعالى -: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ولولاه لعمَّ الكفر وطم. قال - عز من قائل -: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

فهو سبحانه يدفع باطل الكفار والفجار، بالحق الذي يحمله الأطهار الأبرار، وهذا الدفع يكون ببذل الأسباب الحسية المباشرة؛ كالدعوة إلى الله - عز وجل -، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإعداد القوة ورباط الخيل، والجهاد في سبيل الله، وغير ذلك، وببذل الأسباب المعنوية؛ كالإخلاص، وصدق اللجوء إلى الله، والدعاء، والاستغفار، وإصلاح البواطن، وتنقية السرائر، وغير ذلك من أعمال البر، مما يُدفع به البلاء، وتُستنزل به الرحمات.

ونحن في هذه الرسالة نسعى لدراسة هذا التطاول على ديننا وعلى نبينا ﷺ، وما شابهه في القديم والحديث، باحثين عن أسبابه ودوافعه الحقيقية، راصدين بعض صوره في السنوات الماضية، محللين مواقف الأمة حيال الأزمة الأخيرة، خالصين في

النهاية إلى وضع خطة عمل منهجية مدروسة؛ للتعامل مع هذا التطاول، سواء ما وقع منه بالفعل، أو ما يمكن أن يقع في المستقبل والعياذ بالله، وسوف يكون لنا في سبيل تحقيق ذلك عدد من الوقفات[1].

(١) أسهم في إخراج هذا الكتاب المكتبُ العلمي لفضيلة الشيخ ناصر العمر، وعلى رأسهم مدير المكتب العلمي الشيخ إبراهيم بن عبد الله الأزرق، فلهم مني جزيل الشكر والتقدير.

الوقفة الأولى

وتداعت علينا الأمم

....

لا يخفى على أحد ما وصلت إليه الأمة في هذا الزمان من ضعف وهوان، أغرى أعداءها، فتكالبوا عليها تكالب الأكلة على قصعتها، مصداقاً لما أخبر به النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في حديث ثوبان؛ حيث قال: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها». فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهن». فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»[1].

هذا التداعي الواقع في عالم اليوم لم يقتصر على الجانب العسكري؛ بمحاولات اختراق بلاد المسلمين وإخضاعها بقوة السلاح؛ بل أخذ أشكالاً مختلفة، بعضها أطول مفعولاً وأعظم ضرراً، وكلها ترمي إلى نزع هوية الأمة ومحو ثقافتها الإسلامية؛ تارة بالتهجم والتطاول على دين الأمة ومقدساتها، وتارة بإلقاء الشبهات والتشكيك في عقائد المسلمين وشرائعهم، وتارة بالطعن في من نقل لنا هذا الدين من الصحابة والتابعين، ثم أخيراً يبلغ الطعن مداه؛ بالطعن في القرآن الكريم، وفي سيد المرسلين،

---

(١) سنن أبي داود، ٤/ ٣١٥ (٤٢٩٧)، وصححه الألباني، الطبعة الأولى لدار ابن حزم - بيروت (١٤١٨هـ).

صلوات ربي وسلامه عليه إلى يوم الدين.

إن تداعي الجيوش الغازية على الأمة لم ينقطع عبر التاريخ، وقد كانت الحرب سجالاً بين الأمة وأعدائها، وكانت الغلبة - في أغلب الأحايين - من نصيب جند الله الموحدين، وعساكر الإيمان المنصورين. ومهما نزل ببعض الأمة من هزائم عسكرية؛ فإنها كانت دائماً على ثقة بموعود ربها، وأن الدائرة ستدور - بلا شك - على عدوها، وكانت دوماً وأبداً مستعلية بدينها وإيمانها، فلا ترى في أعدائها - وإن انتصروا في أرض المعركة - إلا علوجاً، ليس معهم شيء ينقصها، أو تحتاجهم فيه لدينها أو دنياها، وأن ما معها من كتاب ربها وسنة نبيها هو الحق المبين الذي تعلو به على كل العالمين.

وحيث كان الأمر كذلك، فلم يكن من العجيب أن ينجم عن أعظم اجتياح عسكري للأمة الإسلامية - وهو ما كان من غزو التتار - تأثُّرُ الغازي المحتل بديانة المسلمين المتغلب عليهم، فأسلم من التتار خلْق، وادعى الإسلام منهم آخرون.

لكن الخطر الحقيقي الذي واجهته الأمة وشكل تهديداً فعلياً لوجودها وكيانها - ومن ثَمَّ كان تمهيداً لكل ما حاق بها من هزائم لاحقة إلى يومنا هذا - جاء متأخراً، ولعل بوادره كانت مصاحبة للحملة الفرنسية على مصر؛ ذلك أن الهزيمة العسكرية أمام الفرنسيين كانت مقترنة أيضاً بهزيمة أخرى نفسية عند طوائف كثيرة من المسلمين، ولا سيما من لهم تأثير على واقع الأمة من المتنفذين؛ فللمرة الأولى ينظر فئام من المسلمين إلى العدوِّ نظرة انبهار وإكبار، وللمرة الأولى بدأ يدب الشعور في نفوس ضعاف الإيمان بأن للعدو عليهم فضلاً؛ بمّا يملكه من وسائل وأدوات ومخترعات قصروا عن تحصيلها؛ نتيجة أزمان من الجمود الفكري الذي خيم على حياتهم.

ونتيجة لهذه الهزيمة النفسية؛ كان من السهل على كثير من أبناء المسلمين أن يقعوا

ضحايا للتداعي الآخر الذي أتى به الأعداء، وتناول ثوابت الأمة ومقدساتها، فوافقت الشبهاتُ التي بثها أعداء الدين من الكفار المتغلبين قلوباً خاوية من اليقين، فمادت بها وتمكنت منها، حتى انحرف نفر من المسلمين عن دينهم، فلم يبقَ لهم منه إلا اسمه، ثم تحولوا هم كذلك إلى معاول بيد أعداء الأمة، يهدمون بها ثوابتها من الداخل.

ولعل من الواضح بمكان أن خطورة تداعي الجيوش لا تكاد تقارن بخطورة تداعي المشككين والمتطاولين المتجرئين؛ فمن يقع ضحية التداعي الأول وهو ثابت على دينه يفز بالشهادة وذلك الفوز العظيم، فهو في أعلى عليين مع النبيين والصديقين والصالحين. أما من يقع ضحية الثاني؛ فقد يحصل شيئاً من الدنيا، لكنه يخسر الآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

وهذه المخاطر العظام والتحديات الجسام التي تواجه الأمة، تدعو الغيورين للتداعي أيضاً، غير أنه تداعٍ من نوع آخر حميد، أمر الله به إذ قال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]، والغرض الرئيس من هذا التداعي هو: أولاً: البحث عن مخرج للأمة مما ألَمَّ بها من ضعف وهوان؛ لتعود وتستأنف رسالتها التي أناطها الله - عز وجل - بها؛ من هداية العباد بإخراجهم من «عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»(١).

ولا شك أن الخطوة الأولى في الطريق نحو حل أي مشكلة تواجه الفرد أو المجتمع؛ تكون في شعوره بوجود المشكلة، فهذا التداعي من الغيورين - الذي يدفعهم للبحث عن المخرج - هو أول علامات الصحة والحياة في هذه الأمة، التي كان يؤمِّل أعداؤها أن تموت منذ زمن.

---

(١) من كلمة ربعي بن عامر - رضي الله عنه - المشهورة لرستم قائد الفرس يوم القادسية، تاريخ الطبري، ٣/ ٥٢٠، الطبعة الثانية لدار المعارف بمصر (١٩٦٧م).

بل لا نبالغ إن قلنا: إن مشاعر اليأس من صلاح الحال عند شريحة من شرائح الأمة؛ هو مظهر من مظاهر الحياة والصحة، وإن كان من أدناها؛ فهو كالقيح الذي يملأ الجرح بوصفه مظهراً من مظاهر استشعار الجسم وجودَ الجرح والمرض، لكن أخطر شريحة في الأمة: هي تلك الغافلة عن حالها، اللاهية عن مآلها، التي لا تكاد تتأثر بما يحل ببعضها، فمثلها كمثل جسم أصيبت بعض أعضائه بالسرطان ولم تظهر على أعضائه الأخرى أية أعراض. فإن لم يعبأ صاحبه بما دب إليه الفساد؛ أوشك العطب أن يلحق القلب، أو يستشري الداء في الجسم، وتنقطع سبيل العلاج أو النجاة.

لقد حدد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في حديث (تداعي الأمم) المرضَ الذي آلت حال الأمة بسببه إلى ما آلت إليه، كما أنه - بأبي هو وأمي - قد حدد الشفاء في حديث آخر، أشبه ما يكون بالحديث الأول؛ إذ الداء فيهما واحد؛ حيث قال: «إذا تبايعتم بالعِينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد؛ سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[1]، فالداء واحد يدور حول التعلق بمظاهر حب الدنيا والتعلق بمتاعها، وكراهية الموت، والعقوبة واحدة؛ هي تداعي الأمم وتسلطها، والعلاج مقرر في هذا الحديث.

(١) سنن أبي داود ٣/ ٤٧٧ (٣٤٦٢)، وصححه الألباني.

الوقفة الثانية

التطاول قديم قِدَم العداء

....

إن هذا الغزو المسلح، وهذا التطاول السافر باللسان وباليد، وهذه المحاولات المحمومة لصرف الأمـة عن دينها؛ بالشهوات تارة، وبالشبهات أخرى؛ ليس وليد العصر والساعة؛ لكـنه امـتداد للحـرب المعلنـة منـذ اليوم الأول، لا لبعثة النبي - عليه السلام - فحسب؛ بل لاصطفاء الله - عز وجل - بني آدم، وتكريم أبيهم - عليه السلام - وإسجاد الملائكة له، فهي حرب الحق والباطل، والخير والشر، إنها حرب حزب الله المفلحين وحزب الشيطان الخاسرين، ولن تضع الحرب أوزارها إلى آخر الزمان. وإن كان للباطل فيها جولات؛ فإن العاقبة فيها للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، وإن كانت دولة الباطل والكفر ساعة؛ فدولة الحق والإيمان إلى قيام الساعة.

وتاريخ الأنبياء - الذي هو تاريخ البشـرية الحقيقي - خير شاهـد على ما نقول؛ فبدء التطاول كان فيما سنه إبليس - لعنه الـله - عنـدما قال معـانـداً ربه - سبحانه وتعالى - وقد أمره بالسجود لآدم - عليه السلام -: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] و [ص: ٧٦] فأبدى بذلك ما يُكنه من حسد لآدم - عليه السلام -، ثم أبدى عداوته له ولذريته من بعده، ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٢].

وتستمر الحرب والعداوة بعد آدم - عليه السلام -؛ فها هو نوح - عليه السلام - أول رسول يرسله الله - عز وجل -، بعد ظهور الشرك في بني آدم؛ يجابَه - مع حرصه على هداية قومه - بطعن تلاميذ إبليس اللعين في شخصه الكريم: ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩]، وفي دعوته: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]]، وفي أتباعه: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

وهكذا شأن كثير من الأنبياء بعده؛ فالله - سبحانه وتعالى - أخبرنا في كثير من الآيات بأخبار الأنبياء مع أقوامهم، وفيها تفصيل لطعون القوم ولردود الأنبياء عليهم، قال الله - تعالى -: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]، فكيف جابهوا تلك الدعوة؟ ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، قال القرطبي مفسراً قولهم في سفاهة: «أي: في حمق وخفة عقل»[١].

وهكـذا تسير قافلة الأنبياء، وتتكرر صور الإساءة؛ قال - تعالى -: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٨]، جاء موسى - عليه السلام - وجاءت معه الحجة الظاهرة والسلطان المبين، فماذا فعل فرعون أستاذ الجاحدين المستكبرين، لـمَّا أتته تلك الحجج النيرات والآيات البينات؟ لجأ للتهم والسباب! قال الله - تعالى -: ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٩].

(١) تفسير القرطبي ٩/ ٢٦٣، الطبعة الأولى لمؤسسة الرسالة (١٤٢٧).

ومع أن اليهود اكتووا بفرية فرعون وتهمه هذه، وعلى الرغم من رؤية أجدادهم انتقامَ الله - عز وجل - منه، إلا أنهم لم يعتبروا، فعادوا لـمَّا بُعث فيهم عيسى - عليه السلام - ليقولوا: ساحر! قال ابن جرير في تفسيره - بعد أن ذكر سنده لقتادة - في قوله - تعالى -: ﴿ **ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ** ﴾ [مريم: ٣٤]: «امترت فيه اليهود والنصارى؛ فأما اليهود فزعموا أنه ساحر»[1]. وهكذا ما من نبي جاء بالحق من ربه إلاّ ناصبه المجرمون العداء، ورموه بالتهم جزافاً.

فلا عجب أن ينال خاتم النبيين وسيد الأولين والآخرين، أمرٌ سبق أن نال الأنبياء قبله.

وقد أجمل لنا ربنا - جل في علاه - خبر الأنبياء مع الأمم المكذبة، فقال مسلياً رسوله الكريم ﷺ، إذ رماه قومه بالسحر والجنون: ﴿ **كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ** ﴾ [**الذاريات**: ٥٢ - ٥٣]، قال ابن كثير: «أي: لكن هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم»[2]، فهم لم يتواصوا به، ولكن كما تشابهت قلوب الأول والآخر منهم، واجتمعت على الطغيان؛ تشابهت كلماتهم واجتمعت على تكذيب الرسل والطعن فيهم.

إن التطاول على رسول الله ﷺ، والتطاول على إخوانه من أنبياء الله الكرام، وكذلك التطاول على الدين؛ بالاستهزاء بأي شعيرة من شعائره، أو بالتشكيك وإلقاء الشبهات حول أي حكم من أحكامه؛ ليس في حقيقة الأمر إلا تطاولاً على الله

(١) تفسير الطبري، ١٥/ ٥٣٧، الطبعة الأولى لدار هجر - مصر (١٤٢٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ١٣/ ٢٢٢، الطبعة الأولى لمؤسسة قرطبة - مصر (١٤٢١).

- سبحانه وتعالى - الذي أرسلهم بالحق، وشرع ما بلغوه للناس؛ فلسان حال المتطاول يقول: «لا أبالي بالرب الذي أرسل هذا الرسول، أو شرع هذا الدين»، وهذا لا يصدر إلا من كافر عدو لله، موغلٍ في العداوة.

الوقفة الثالثة

يُبتلى الرجل على حسب دينه

....

إن من لوازم التدافع بين أهل الحق وأهل الباطل: أن يقع على أهل الحق من أعدائهم محن وفتن وابتلاء وأذى، لا لشيء؛ إلا لإيمانهم بالله، والاهتداء بهديه، والدعوة إليه. وصدق الله - عز وجل - وقد بين لنا حقيقة الأمر فقال: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، وهذا التقرير هو جواب السؤال المأمور بطرحه في المائدة: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩]، وهو ما أدركه سحرة فرعون منذ اللحظة الأولى التي آمنوا فيها، فقالوا له لما توعدهم فرعون بالتصليب والتعذيب عند كفرهم به وإيمانهم بالله: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

هذا، والبلاء النازل بأهل الحق من أعدائهم أنواع؛ فمن الغمز واللمز، إلى التعريض بالكلام، ثم السب والشتم، مروراً بصب ألوان العذاب والحبس والتشريد، وانتهاءً بالقتل.

ولما كانت الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - رأس دعاة البشرية إلى الحق والخير؛ لم يكن بُد من معارضة أهل الباطل وأذاهم لهم، بل لم يكن بُد من تعرضهم

لأشد أنواع الأذى؛ ففي صحيح ابن حبان ومستدرك الحاكم، من حديث سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - أنه قال: يا رسول الله، من أشد الناس بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل؛ يُبتَلى الرجل على حسب دينه»[1].

وقد نال أنبياء الله من أعدائهم ما نالهم؛ فأصابتهم منهم الآفات والآلام، ولحقهم منهم الغضب والضجر، ونالهم بسببهم الإعياء والتعب، وقد أصاب نبيَّنَا ﷺ من ذلك ما أصابه؛ قالوا: ساحر كذاب، وقالوا: شاعر مرتاب، وقالوا: كاهن مجنون، وقالوا: صابئ مفتون، ولم يكتفوا بقول الزور، حتى ألقوا على عاتقه سلى الجزور، ثم كسروا رباعيته وشجّوه، وسقوه السم وسحروه، وبقي - بأبي هو وأمي - يلاقي كل ذلك وهو صابر محتسب، حتى قضى نحبه مؤْثِراً جوار ربه، فتوفي ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى، فتخلص شهيداً من دار الامتحان والبلوى، إلى جوار من يعلم السر وأخفى، ففي صحيح البخاري: قالت عائشة - رضي الله عنها -: كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبْهَري[2] من ذلك السم»[3].

قال القاضي عياض: «وأصاب غيرَه من الأنبياء ما هو أعظم منه؛ فقتلوا قتلاً، ورموا في النار، ووشروا بالمياشير، ومنهم من وقاه الله ذلك في بعض الأوقات، ومنهم من عصمه كما عُصِم بَعْدُ نبيُّنَا من الناس، فلئن لم يَكْفِ نبيَّنَا ربُّه يدَ ابن قَمِئَةَ يوم أُحد،

(١) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، ٧/ ١٦١ (٢٩٠١)، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن، ومستدرك الحاكم، ١/ ١٠٠ (١٢١)، الطبعة الثانية لمؤسسة الرسالة (١٤١٤)، الطبعة الأولى لدار الكتب العلمية - بيروت (١٤١١).

(٢) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري، ٧/ ٧٣٧: (قال أهل اللغة: الأبهر: عرق مستبطن بالظهر، متصل بالقلب، إذا انقطع مات صاحبه)، طبعة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد الأولى (١٤٢١).

(٣) صحيح البخاري، ٣/ ١٨١ (٤٤٢٨)، الطبعة الأولى للمكتبة السلفية - مصر (١٤٠٠).

ولا حجبه عن عيون عداه عند دعوته أهل الطائف؛ فلقد أخذ على عيون قريش عند خروجه إلى ثور، وأمسك عنه سيف غَوْرَث، وحَجَرَ أبي جهل، وفرس سُراقة. ولئن لم يقه من سحر ابن الأعصم؛ فلقد وقاه ما هو أعظم؛ من سَمِّ اليهودية[1]، وهكذا سائر أنبيائه مبتلى ومعافى، وذلك من تمام حكمته سبحانه؛ ليُظهر شرفهم في هذه المقامات، ويبين أمرهم، ويتم كلمته فيهم، وليحقق بامتحانهم بشريتهم، ويرتفعَ الالتباس عن أهل الضعف فيهم؛ لئلا يضلوا بما يظهر من العجائب على أيديهم ضلال النصارى بعيسى ابن مريم، وليكون في محنهم تسلية لأممهم، ووفور لأجورهم عند ربهم، تماماً على الذي أحسن إليهم»[2].

ومن العجب أن يعمد أناس إلى أحرص الناس على سعادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة؛ من يسعى لإنقاذهم من النار وإدخالهم الجنة، ولا يسألهم على ذلك أجراً، فيعادوه ويؤذوه ويقاتلوه، بل يقتلوه! لكن العجب يزول عندما نجد هؤلاء القوم قد أمعنوا في غيهم وضلالهم فتجرؤوا على من خلقهم ودَبَّر أمرهم، ورزقهم من الطيبات، وفتح عليهم من بركات الأرض والسماوات، حتى قال بعضهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] فقال الله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]، ونقل عن آخرين زعمهم أنهم إنما فعلوا الفاحشة استجابة لأمر الله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] فرد عليهم قائلاً - جل وعلا -: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ

---

(١) يريد بذلك إخبار ذراع الشاة له أنها مسمومة، وعدم تمكن اليهودية من قتله - عليه السلام - بهذا السم في الحال، وإن بقي أثر السم كما مر في حديث البخاري.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ٢/ ١٧٩، طبعة دار الفكر - بيروت (١٤٠٩).

بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وقال غيرهم: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] فرد الله عليهم فريتهم وقال: ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

لكن ما لا ينقضي منه العجب: أنْ لا ينتصر أهل الحق لرُسُل الله، والله - تعالى- يقول: ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: ٢٥]! ومعاذ الله أن تكون أمتنا اليوم كالأمة الغضبية، التي قص لنا ربنا - عز وجل - شيئاً من تمردها على كليم الله موسى - عليه السلام -، وامتناعها عن نصرته بقوله - سبحانه -: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤]، بل أمتنا - على ما في أحوالها من دَخَن - تقول لنبيها ﷺ كما قال له سلفها الصالح: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون»[1].

(١) مسند أحمد بن حنبل، ٤/ ٣١٤ (١٨٨٤٧)، وصححه الأرناؤوط، طبعة مؤسسة قرطبة - القاهرة، من دون تاريخ أو رقم طبعة.

الوقفة الرابعة

صور التطاول القديم

....

لقد تعرض النبي ﷺ في مكة والمدينة لشيء من الطعن والاستهزاء والتطاول :

- **أما في مكة المكرمة** : فقد تنوعت اتهامات المشركين الباطلة ، وتعددت أشكالها ؛ فمن ذلك :

أولاً : ما تناول شخص النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لبيان أنه لا يمكن أن يكون رسولاً من عند الله ، مثل : قولهم : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر : ٦] .

وقولهم : ﴿**بَلْ هُوَ شَاعِرٌ**﴾ [**الأنبياء** : ٥] .

وقولهم : ﴿**إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا**﴾ [**الفرقان** : ٨] .

وقولهم : ﴿**هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**﴾ [ص : ٤] .

وقولهم : ﴿**مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ**﴾ [**الدخان** : ١٤] .

ومثل ما نفاه الله من قولهم : ﴿**فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ**﴾ [**الطور** : ٢٩] .

وهي تهم تحمل في طياتها أكبر دليل على بطلانها وكذب دعوى أصحابها؛ لتناقضها في نفسها، واستحالة أن تجتمع في رجل واحد في آنٍ واحد، فكيف يكون الرجل ساحراً ومسحوراً في آنٍ؟ وكيف يمكن للمجنون أن يفهم الخطاب حتى يصير معلَّماً؟ أم كيف له أن ينطق بكلام الشعراء الموزون أو الكهان المسجوع، الرامي إلى استخراج دفائن الغيب - بزعمهم - ثم يقال: مجنون؟ فهل يتأتى مثل هذا للمجانين؟ سبحانك هذا بهتان عظيم، وتناقض من المبطلين!

ثانياً: ما تناول الحقَّ المبين الذي جاء به؛ للتقليل من شأنه وادعاء بطلانه؛ مثل: قولهم: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾ [الأنبياء: ٥].

وقولهم: ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان: ٥].

وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصافات: ١٥].

ولعلمهم في قرارة أنفسهم بتهافت هذه التهم؛ قال مُقدَّمُهم الوليد بن المغيرة: «فوالله ما فيكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلَى، وإنه لَيَحطِم ما تحته»[1]، فلما أبى عليه الكفار إلا أن يطعن بشيء؛ فقال: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٤ - ٢٥]، فتوعده الله بقوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٦]، ثم إنه - سبحانه وتعالى - رد على كل هذه الفرى بآية جامعة، فقال: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

(١) مستدرك الحاكم ٢/ ٥٥٠ (٣٨٧٢)، وقال: صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

ثالثاً: ما تناول شخصه - عليه السلام - بالسخرية والاستهزاء؛ استكباراً وعلوّاً وإغاظة للمؤمنين:

كقولهم: ﴿**أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً**﴾ [**الفرقان**: ٤١].

وقولهم: ﴿**لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾ [**الزخرف**: ٣١].

وكقولهم: إنه [عليه السلام] أبتر، إلى غير ذلك من أنواع الاستهزاء، فرد الله على جميع شانئيه ومبغضيه والمستهزئين به ببديع القول، فقال عز من قائل: ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾ [**الكوثر**: ٣]، ورد عليهم بجميل الفعل، كما قال ابن كثير: «أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمراً على دوام الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد»(١).

- **وأما في المدينة المنورة**: فقد انتقل المسلمون من حال الاستضعاف إلى حال التمكين، وصار النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لا سيما بعد غزوة بدر الكبرى هو الحاكم المرجوع إليه في الدولة الإسلامية الفتية. وكما بسط سلطانَه الروحي على قلوب المؤمنين؛ فقد بسط سلطانَه الحسي على كل رعايا الدولة، التي لم تخلُ من عدو ظاهر لا يقل عداوة عن مشركي قريش؛ هم يهود المدينة، وعدو باطن - هو أخطر أنواع الأعداء - ألا وهم المنافقون.

ومع تغير طبيعة العدو وتغير حال المؤمنين؛ تغيرت طبيعة الحرب بين الحق والباطل؛ فما عاد من الممكن المجاهرة بالعداوة والإيذاء من دون أن تنال سيوفُ الله من رقاب

---

(١) تفسير ابن كثير، ١٤/ ٤٨٣.

المعتدين، وصار من المستحيل الطعن في القرآن، أو التطاول على مقام النبي - عليه السلام - في العلن، سواء بتكذيبه أو الاستهـزاء به - عليه السلام -، لكن المـنافقين كانوا مع ذلك يؤذون النبي - صلـى الله عليه وآله وسلم - نوع أذية دون التكذيب الصراح، أو الاستهزاء البواح؛ وذلك بالاعتراض على بعض أفعـاله، عليه السـلام. وقد حـكـى الله - عـز وجل - عنهم شيئاً من ذلك؛ كقوله - تعالى -: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨]، وقوله - عز من قائل -: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ﴾ [التوبة: ٦١].

أما الطعن في شخصـه - عليـه السـلام - أو في أصحابه - رضي الله عنهم -؛ فإنما كان يتم في الخفاء. قال مجاهد في تفسير قوله - تعالى -: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤]: «يقولون القول بينهم، ثم يقولون: عسى الله أن لا يفشي سرنا علينا!»[(١)].

فإذا ما وصل خبر الطعن للنبي - عليه السلام -، بإعلام الله - سبحانه وتعالى- له، أو بإخبار المؤمنين بعض ما سمعوه من المنافقين؛ جاؤوا يحلفون الأيمان المغلظة: إنهم ما قالوا، كما في قول رأس النفاق عبد الله بن أُبي بن سلول، الذي حكاه الله عنه: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، أو قول الجُلاس بن سويد بن الصامت: «إن كان ما جاء به محمدٌ حقًّا، لنحن أشرُّ من الحُمُر!»[(٢)].

ففي هذين القولين وما أشبههما مما جاء أصحابها يحلفون: إنهم ما قالوا؛ نزل قوله

(١) تفسير الطبري، ١١/ ٥٤١ - ٥٤٢.

(٢) السابق، ١١/ ٥٦٩.

- تعالى -: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]. وفي غيرهما من أقوال، جاء أصحابها يعتذرون بأعذار واهية؛ كما اعتذر بعضهم عن قوله يوم تبوك: «ما لقُرَّائنا هؤلاء أرغبُنا بطونًا، وأكذبُنا ألسنةً، وأجبنُنا عند اللقاء!»[1]، وآخرون عن قولهم: «يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات!» فقالوا: «يا نبي الله، إنما كنا نخوض ونلعب»[2]؛ نزل قوله - تعالى-: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦].

هذه كانت صور التطاول في زمن النبي - عليه السلام -، وهذه كانت حال المتطاولين؛ فهل اختلفت الحال اليوم؟

(١) السابق، ١١/ ٥٤٣.

(٢) السابق، ١١/ ٥٤٤.

الوقفة الخامسة

ما أشبه الليلة بالبارحة!

....

كما تعرض نبي الإسلام - عليه الصلاة والسلام - وشريعته للطعن والتطاول والهجوم كشأن الأنبياء والشرائع الإسلامية مِن قبل؛ فكذلك قام أعداء الإسلام في هذا العصر بالطعن والتطاول، شأن أعدائه الأولين في مكة والمدينة.

وقد مر التطاول على دين الله وعلى مقدساته بمرحلتين؛ الأولى: في مكة قبل الهجرة، والثانية: في المدينة المنورة بعدها؛ فحيث كان المسلمون مستضعفين في مكة المكرمة؛ كان التطاول والاستهزاء مستعلناً مستعلياً. وحيث صارت لهم القوة والمنعة في المدينة المنورة بعد بدر؛ انكفأ المتطاولون والمستهزئون؛ خشية أن يطالهم العقاب الرادع، وعدلوا عن إظهار الكفر إلى النفاق، وعن الطعن في النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - جهاراً نهاراً إلى الاعتراض على بعض أفعاله - عليه السلام -، أو التعريض به وبأصحابه - عليه السلام - في الخفاء.

واليوم، على ما بالمسلمين من ضعف ظاهر، وعلى الرغم من انفراط عقد الخلافة التي كانت تجمع شتاتهم، وتحفظ كيانهم، وتذود عن مقدساتهم؛ فإن المرء لا تكاد تخطئ عينه تكرار حاصل الحالة القديمة؛ فحيث كان الإسلام متمكناً في النفوس ومهيمناً على المجتمع؛ فإن الباطل لا يجرؤ على المجاهرة بالطعن والتطاول على ما يستعظم

الطعنَ فيه المسلمون؛ وإنما يُتعرض لقضايا جزئية، لا عن طريق الطعن المباشر والتنقص والازدراء، ولكن بطريقة التشكيك، أو الدعوة للتنوير والتطوير، أو اللعب على وتر قول ضعيف، أو رواية شاذة منكرة، أو رواية إسرائيلية، أو الاعتماد على كتب لم يلتزم أصحابها فيها الصحة، إنما جمعوا فيها ما وقع لهم من روايات.

ومن العسير جداً أن يتطاول أهل الباطل على أسس الدين ومسلماته بالطعن المباشر في تلك البيئة التي لا يزال فيها الإسلام مهيمناً على النفوس، وقد تقع نادرة أو حادثة غالباً ما تكون بمنزلة منطاد اختبار؛ لمعرفة حصانة المجتمع والحال التي وصل إليها؛ وذلك لأن حال ظهور الإسلام تقتضي أن يكون لكل كعبِ بن الأشرف محمدُ بن مسلمة، ولكل مرتد أبو بكر وعمر!

وفي المقابل، كلما ضعفت هيمنة الإسلام الصحيح على النفوس، وكلما ضعف سلطانه في المجتمع؛ اشرأبّ الباطل ليكسب أرضاً جديدة فرط فيها المسلمون، فبعد أن كان الحديث يدور عن جزئية - كصحة حديث في البخاري مثلاً - يصبح الكلام عن قيمة البخاري كله، وبعد أن كان الحديث عن عدالة راوٍ من رواة الصحابة، يصبح الحديث عن عدالة الصحابة كلهم، وبعد أن كان الكلام عن مناسبة حكم من الأحكام للعصر الحديث، يصبح الكلام عن ضرورة عرض ما في القرآن على ميزان النقد التحليلي؛ كأي كتاب آخر بنزع القداسة عنه[1]. وبعد أن كان الكلام عن بعض أحداث سيرة المصطفى - عليه السلام - يصبح الكلام عن النبي - عليه الصلاة والسلام - كأنه مصلح من المصلحين، أو ثائر من الثائرين، إلى أن يتمادى بعضهم فينبش ما سوده المستشرقون للطعن في نبوته - عليه السلام -؛ كقولهم: إن به مسّاً من صرع أو جنون، قاتلهم الله أنى يؤفكون!

(١) من أمثال ما هرف به نصر حامد أبو زيد في عامة كتاباته، وقد حكمت عليه محكمة مصرية بالردة.

إذاً، ما أشبه الليلة بالبارحة! وما أشبه حال المسلمين في بقاع الأرض المختلفة بحالهم في مكة والمدينة! وما أشبه حال أعدائهم اليوم بحال أعداء سلفهم الأولين! وصدق الله حيث قال: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

الوقفة السادسة

أتواصوا به..؟ بل هم قوم طاغون!

....

لئن فعل كفار قريش وغيرها من العرب برسول الله ﷺ ما فعلوا، ولئن راموا إيصال الأذى إلى ذاته الشريفة بوسائل شتى؛ فإن محاولات أذيته - عليه السلام - بأذىً حسيٍّ مِن خَلَفِهم - من كفار العجم والعرب - لم تنقطع بعد موته ﷺ، وما زالت مستمرة حتى اليوم.

ولئن كان الأذى الذي يطال الأنبياء - عليهم السلام - غالباً ما ينتهي بموتهم، لفوات الداعي إلى هذا الأذى؛ فإن الأذى الذي يطال نبينا - عليه السلام - لن ينتهي - إلا أن يشاء الله - حتى يعود دين الله ظاهراً على الدين كله ولوكره الكافرون، وما ذلك إلا لتوافر الداعي لهذا التطاول عند أعداء الله؛ ألا وهو بقاء معجـزته ودعـوته - عليه السلام- حية بين الناس، وإن انتقل هو - صلوات ربي وسلامه عليه - إلى الرفيق الأعلى.

وقـد أثبتـت كتـب التـاريخ المعتَبَرة محاولات بعض الفـرنجة - لعنهم الله - قصد المدينة المنورة؛ لنبش الحجرة النبوية، ونقل صاحبها - عليه الصلاة والسلام - ليأخذوا من المسلمين جُعلاً على زيارته!

قال الذهبي - رحمه الله -: «فقام صلاح الدين لذلك وقعد، ولم يمكنه أن يتزحزح

من مكانه، فأرسل إلى سيف الدولة ابن منقذ نائبه بمصر أن جهز لؤلؤاً الحاجب، فكلمه في ذلك فقال: حسبك، كم عددهم؟ قال: ثلاثمائة ونيف كلهم أبطال.

فأخذ قيوداً بعددهم، وكان معهم طائفة من مرتدة العرب، ولم يبقَ بينهم وبين المدينة إلا مسافة يوم، فتداركهم وبذل الأموال، فمالت إليه العرب للذهب، واعتصم الفرنج بجبل عالٍ، فصعد إليهم بنفسه راجلاً في تسعة أنفس، فخارت قوى الملاعين بأمر الله - تعالى - وقويت نفسه بالله، فسلموا أنفسهم، فصفدهم وقدم بهم القاهرة، وتولى قتلهم الفقهاء والصالحون والصوفية»[1].

وقد ذكر بعضهم بضع محاولات لنبش القبر الشريف من قِبَل النصارى على مر التاريخ، ومحاولات غيرها لبعض الباطنية.

وكما تعدى الأولون بالقول، فقال قائلهم: شاعر وكاهن ومجنون؛ فقد قالها المتأخرون وزادوا عليها، فقالوا عنه - عليه السلام -: عاشق للنساء، متعطش للدماء، داعية للكراهية والبغضاء..؛ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً.

(١) تاريخ الإسلام للذهبي، ٤٢/ ٣٦٤ - ٣٦٥، الطبعة الثانية لدار الكتاب العربي - بيروت (١٤١٠).

الوقفة السابعة

صور التطاول في العصر الحديث

....

إن التطاول في هذا العصر كالتطاول في القديم:

- إما أن يصدر من كفار أصليين؛ سواء كانوا علمانيين ملحدين، أو يهوداً ونصارى حاقدين؛ بعضهم قساوسة وبعضهم ساسة متدينون، ونحو هذا صدر قديماً عن فئام من المشركين، كبعض كفار مكة، وكذلك بعض اليهود والنصارى الحاقدين، من أمثال ابن الأشرف وأبي رافع اليهوديين.

- وإما أن يصدر عن مرتدين؛ من أمثال الهندي سلمان رشدي، والصومالية أيان حرصي، والإيراني إحسان جامع؛ ومثل هؤلاء طوائف من العلمانيين والشيوعيين، ممن يتسمون بأسمائنا ويتكلمون بألسنتنا، وهم ما فتئوا يطعنون في ثوابتنا تصريحاً أو تلميحاً، وكلما أمن أحدهم العقوبة تمادى في إساءة الأدب، كما حصل قديماً من ابن خطل، وابن أبي السرح قبل فيأته، رضي الله عنه.

وهؤلاء جميعاً يجمعهم هَمٌّ واحد: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

وقريباً مما حدث في الماضي يحدث اليوم؛ فقد انقسم التطاول في العصر الحديث

إلى قسمين: تمثل الأول في التطاول بالقول، وتمثل الثاني في التطاول بالفعل.

القسم الأول: التطاول بالقول:

وهذا القسم هو الأكثر ظهوراً وانتشاراً، وهو على ضربين: تمثل الأول بإلقاء الشبهات، والثاني بالطعن في النبي ﷺ وإلقاء الاتهامات.

أما الشبهات فكثيرة؛ مثل ما يثار بشأن قضايا الميراث، وتعدد الزوجات بعامة، وتعدد زوجات النبي ﷺ بخاصة، ومسألة ختان الإناث، والكثير من قضايا المرأة، وكذلك قضايا حرية التدين، والحريات العامة، ومسألة انتشار الإسلام بالسيف، وغير ذلك.

وبعض هذه الشبهات قد يكون مدخلاً في الوقت نفسه للطعن في النبي ﷺ والتطاول على مقامه السامي، الذي لا يدانيه مقام أحد من ولد آدم؛ فقد تثار شبهة بشأن جمع النبي ﷺ بين تسع زوجات، بينما لا يجوز للمسلم الجمع بين أكثر من أربع، ثم تستخدم هذه الشبهة في التطاول عليه - بأبي هو وأمي - فمن زاعم أنه كان شهوانياً، ومن قائل بتعديه على القُصَّر، ومن معترض على زواجه بمن تكبره، قاتلهم الله أنى يؤفكون!

والناظر في وسائل الإعلام المختلفة لا تخطئ عينه بعض هذه الشبه، التي تُطرح بكثافة وعلى نطاق واسع. . هذا بالنسبة للشبهات.

أما ما يتعلق بالطعن وإلقاء الاتهامات؛ فالحوادث كثيرة، ولكننا نكتفي بنماذج لها مراميها، فنشير - على الصعيد الإعلامي - إلى نماذج محددة، وعلى الصعيد الديني إلى نماذج لشخصيات مشهورة، مقربة من بعض ساسة الغرب.

فأما الصعيد الإعلامي:

- فمنه ما اشتهر في بعض المواقع عمَّا نشرته صحيفة هيوستن برس الأمريكية الأسبوعية في ولاية تكساس؛ من إعلان لدار عرض أمريكية، تعرض فيلماً إباحياً بعنوان: «الحياة الجنسية للنبي محمد [ﷺ]».

وعلى الرغم من الاحتجاجات التي تلقتها دار السينما من مسلمي ولاية تكساس، إلا أنها رفضت إيقاف عرض الفيلم، ولم يُتّخذ أي إجراء لمنع عرضه من قبل المسؤولين؛ بل قامت الشرطة - بناء على طلب الدار - بصد المتظاهرين المحتجين على عرضه.

- ومن الحوادث القديمة نسبيّاً التي تذكر في هذا الصدد: حادثة الهجوم على المقر الرئيس لمنظمة «بني بريث»[1] ومبنيين رئيسين في العاصمة واشنطن عام ١٩٧٧م، طالبت فيه مجموعة إسلامية بإلغاء الفيلم السينمائي «محمد رسول الله»، وتسليم الرجال الذين قتلوا «مالكوم إكس»[2] الداعية المعروف باسم: الحاج مالك شباز.

- ومن هذا القبيل: نشاط عدد من الإعلاميين الغربيين قديماً وحديثاً، ودأبهم على

(١) منظمة صهيونة ترمى بالماسونية.

(٢) مسلم أمريكي، كان في مبدأ أمره مقدَّماً في حركة (أمة الإسلام) يدين بعقيدة الإليجا. و (أمة الإسلام) حركة باطنية عنصرية مشبوهة، يرى بعض المحللين أنها مدعومة بغرض هدم الإسلام باسم الإسلام، ولا سيما بين الزنوج، ثم يسر الله لمالك الحجَّ ولقاء العلماء في الجزيرة ومصر والسودان، فرجع وأنشأ جماعة أسماها (جماعة أهل السنة)، وشرع في الدعوة إلى دين الحق بصورته الصحيحة، وظل على هذه الحال يسلم على يديه الفئام، ويرجع إلى الدين الحق مثلهم ممن خُدع بالأفكار الباطنية، حتى كان يوم ١٨ شوال سنة ١٣٨١، عندما دُعي مالك شباز لإلقاء محاضرة في جامعة نيويورك. وعندما صعد المنصة وأخذ يدعو إلى السلام؛ أُحدِثت مشاجرة مفتعلة في وسط القاعة، فالتفت إليها الحاضرون. وفي غفلة من الناس؛ انطلقت ثماني عشرة رصاصة غادرة من ثلاثة رجال في الصف الأول، لتستقر في جسد هذا الداعية، رحمه الله.

تشويه صورة الإسلام والمسلمين عن سبق إصرار وترصد؛ بدعوى حرب التطرف[1]:

■ ففي عام ١٩٨٥م، خصص الإعلامي الفرنسي المخضرم (برنار بيفو) في برنامج ثقافي كان ذائع الصيت يدعى «أبستُرُف» (فاصلة) بالعربية، حلقةً خاصةً عن «القرآن والعنف»، دعا إليها محمد أركون، وعلال سي ناصر، وجيل كيبل، وآخرين. ومع أن هذا الإعلامي يعترف منذ البداية وهو يقدم للحلقة بأنه: «لم يقرأ القرآن»؛ إلا أنه كان قادراً - فيما يبدو - على استخلاص الحُكم بأن القرآن يدعو إلى العنف والتطرف حتى من دون قراءته، وهكذا فلتكن الموضوعية وإلا فلا!

■ واليوم نجد بعض الكتاب قد نذر نفسه لتلك المهمة؛ ومن أمثلتهم الكاتب: دانييل بايبس Daniel Pipes المعروف بانتقاده للسياسات العربية، ودعمه للتدخل الأمريكي في الشرق الأوسط، والذي يلهج بذكر التهديد الإسلامي الوشيك، وله إسهامات كثيرة في هذا الصدد.

■ وفي السياق نفسه، نجد كثيراً من الكتاب والإعلاميين الغربيين، يروجون لمسألة التهديد الإسلامي للغرب وحضارته وحريته، وسوف يكون هناك مزيد بسط لهذه النقطة في الوقفة الثانية عشرة، إن شاء الله.

■ وأخيراً: نجد كثيراً من الكتاب والصحفيين الغربيين قد سلكوا تلك السبيل خلال أزمة الرسوم المسيئة؛ حيث راحوا يؤيدون نشر هذه الرسوم؛ بدعوى حرية التعبير، بل كررت نشر الرسوم سبع عشرة صحيفة، ودافع عن نشرها بعض ساسة الدنمارك.

- ومن ذلك: ما قام به المرتد سلمان رشدي، هندي الأصل بريطاني الجنسية؛

(١) ولا شك أن هذه إساءة لمن دعا إلى الإسلام والقرآن وبلّغهما وقام بهما خير قيام ﷺ، وإن كان غيرها أصرح.

حيث ألف رواية باسم (آيات شيطانية)، تعرض فيها للقرآن الكريم ولبيت النبوة الطاهر، وللكثير من القيم الإسلامية بأقذع الألفاظ؛ الأمر الذي أثار عند نشر الرواية عام ١٩٨٨م ثورةً عارمة في العالم الإسلامي؛ فانتشرت مظاهرات غاضبة في كثير من دول العالم الإسلامي، بل في الغرب أيضاً من قبل بعض الجاليات المسلمة. وقد أودت تلك المظاهرات بحياة خمسة عشر مسلماً في باكستان، ثم صدرت بعض الفتاوى بإهدار دمه، وكان من آثار ما سبق: منع تداول الرواية في كثير من البلاد، فسحبت آلاف النسخ من الأسواق، واضطر سلمان رشدي للتخفي سنوات طويلة؛ خوفاً على حياته.

- ومنه كذلك: نشاط مؤسس جمعية المرتدين الإيراني إحسان جامع، الذي يصف النبي ﷺ بأنه شخصية مرعبة، ولا يزال بين فينة وأخرى يتطاول على الإسلام، أو على نبيه عليه الصلاة والسلام.

- ومن المرتدين الذين اقتحموا مجال العمل الإعلامي: الصومالية أيان حرصي، التي قالت: «النبي محمد [ﷺ] بالقياس إلى المعايير الغربية؛ شخص منحرف ومستبد»، واستشهدت بأنه تزوج من طفلة عمرها تسع سنوات، وقد أسهمت مع المخرج الهولندي «ثيو فان جوخ» في إصدار أحد أشهر الأفلام الملبسة المسيئة للإسلام، وكان عنوانه: «الخضوع».

ومن جهة أخرى فقد أكدت عزمها على إنتاج فيلم على شاكلة فيلم «حياة براين»؛ يتناول حياة النبي محمد ﷺ «المليئة بالألوان» على حد وصفها، وصرحت بأن شخصاً ما سيقوم بتمثيل دور النبي محمد ﷺ، وأنها ستذكر فيه الجوانب التي تفترض أن باقي المسلمين لا يودون أن تظهر للعلن عنه ﷺ، ومثلت لذلك بما قالت: إنه حب النبي محمد [ﷺ] لزوجة ابنه، وكيف أنه غاب في غار وعاد ومعه الحل السحري لزواجه منها.

وفي مقابلة مع صحيفة صابفو الدنمركية، نشِرت في ٢٣ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٥م على خلفية قضية الصور الكاريكاتورية؛ ناقشت ما أسمته «مشكلة اعتبار القرآن مقدساً» عند المسلمين، بغض النظر عن تمسكهم بالدين، فقالت: «التقيت مؤخراً بعض الصحفيين العرب، وأخرجت قرآناً من حقيبتي وألقيته على الأرض، فقامت فتاة تركية غير محجبة وكانت تبدو علمانية، وقالت لي: أطالب بأن تلتقطي القرآن وتعيديه إلى حقيبتك! أجبتها بأن هذه نسختي، وبأنني أفعل بها ما أريد. والذي يحدث الآن أنك لا تستطيع إعادة تفسير محتوى القرآن؛ لأن كل شيء حوله - الغلاف، الرسائل، الحبر - مقدس».

وقد رُفعت مجموعة من تهم التمييز ضدها من قِبَل عدة منظمات إسلامية، ومن قِبَل مسلمين بشكل فردي، إلا أن الأمر لم يصل أبداً إلى المحاكم؛ لقناعة المدعي العام بأن: «آراءها لا تؤثر على وضع المجتمع المسلم في هولندا، وأن تصريحاتها لا تحتوي أي استنتاجات تتعلق بمسلمي هولندا، وأن حقوقهم مجموعةً وأقليةً لم تنكر»[1].

وأما الصعيد الثاني: وهو المتمثل في بعض القيادات الدينية؛ فالمتأمل يجد أن إساءات عظيمة لنبينا ﷺ بدرت من أشخاص لديهم معرفة واسعة بالأديان، بل إن الإساءة إلى رسول الله ﷺ جاءت من رجال الدين النصارى أنفسهم، بل من رؤوسهم ومرجعياتهم، سواءً كانوا كاثوليك أو بروتستانت.

أما الكاثوليك، فحسبنا كلمة رئيسهم[2] القريبة التي رفض أن يعتذر عنها،

---

(١) هذه المعلومات موجودة ضمن ترجمتها في موسوعة الويكيبيديا العالمية على شبكة الإنترنت.

(٢) هو رئيس الفاتيكان بنديكيت السادس عشر؛ حيث وصف الإسلام في كلمة له عام ٢٠٠٦م بأنه دين انتشر بالسيف والعنف، وقد تصدى للرد عليه كثيرون؛ ومن الردود الجيدة في الجملة ما كتبه الملحد الصهيوني (يوري أفنيري)! وقد فند كلامه بإنصاف وموضوعية، وبين زيف دعواه؛ والحق ما شهدت به الأعداء!

بل أسِف لسوء فهم المسلمين لها، وأسف لما سببته كلماته من مردود غير حميد تجاه بعض النصارى!

وإذا كان مقدم النصارى الكاثوليك ورئيسهم لا يتورع عن أن ينقل في جمع رسمي معدٍّ له ومهيأ، ما قاله إمبراطور بيزنطي يقدح في رسول البشرية ﷺ؛ فكيف يتورع من هم دونه ممن هم أقل مسؤولية، وكلماتهم أقل اعتباراً وأثراً؟

وأما البروتستانت، فقد نشطت في عام ١٤٢٣هـ حملة لقساوسة أمريكيين، غرضها الطعن في نبينا ﷺ وتشويه صورته:

▪ فعُرِف منهم جيري فالويل (Jerry Falwell)[١] الهالك في ربيع الآخر من عام ١٤٢٨هـ، وهو صاحب كتاب: (فلنتقدم إلى معركة هرمجدون)[٢]، الذي وضع في أوله -عليه من الله ما يستحق- سيرة زائفة لنبينا ﷺ، ومما قاله هذا الهالك: «لقد أرسى

(١) قسيس إنجيلي معروف، قطن منطقة لينشبرج في ولاية فرجينيا، كان له برنامج إذاعي وتلفزيوني أسبوعي يصل إلى أكثر من ١٠ ملايين منزل، وله جامعة دينية تسمى جامعة الحرية. عُرِف بسبه وشتمه لنبينا محمد ﷺ. ويجدر بالذكر أن الصهيونية أهدوه طائرة خاصة من نوع ويندستريم ثمنها ٢,٥ - ٣,٥ مليون دولار، مع قطع غيار بقيمة نصف مليون دولار. وهو يُباهي بأنّه يقطع بطائرته النّفاثة ١٠ آلاف ميل في الأسبوع للدّعاية الانتخابيّة لمرشّحيه.
وقد ظهر فالويل أوّل سياسي أمريكي مرموق يقول: على أمريكا دعم إسرائيل، ليس من أجل مصلحة إسرائيل فقط، ولكن من أجل المحافظة على أمريكا نفسها. ومع اقتراب انتخابات ١٩٨٠؛ زاد بروز فالويل وسلّطت الصّحافة الأضواء على منظّمته المعروفة باسم الأكثرية الوطنيّة. وقرّر الرئيس الأمريكي السابق ريغان مكافأته، فمنحه ميداليّة تحمل اسم: (فلاديمير زيف جابوتنسكي) الأيديولوجي الصّهيوني اليميني، أستاذ الإرهابي الصهيوني (بيغن). وقد قالت قريس هالسل: (لفولويل وبيغن الأهداف نفسها: إنّهما يعشقان القوّة، ويبرّران العنف من أجل تحقيقها).

(٢) هي معركة نهاية التاريخ التى يرى البروتستانت حتميتها مع المسلمين عند سفح هرمجدون، وقد نشر هذا الكتاب في موقعه على الإنترنت: www.falwell.com

المسيح في رأيي مثالاً للحب، وفعل موسى الشيء نفسه، لكنَّ محمداً [ﷺ] ضرب المثل المناقض لهما».

وقال في حديث له بُث يوم الأحد ٦/ ١٠/ ٢٠٠٢م في برنامج «٦٠ دقيقة»: «أنا أعتقد أن محمداً [ﷺ] كان إرهابياً. لقد قرأت ما يكفي من المسلمين وغير المسلمين؛ لقد كان رجل عنف، ورجلِ حروب».

ونحن لا ندري ماذا قرأ للمسلمين، هل قرأ ما نقلوه عنه - عليه السلام - من نهيه عن قتل الشيوخ والنساء والأطفال في الحرب؟ أم قرأ ما نقلوه من نهيه عن قتل المنقطعين للعبادة في البِيَع والصوامع من اليهود والنصارى؟ أم قرأ ما نقلوه من نهيه عن قطع الأشجار وحرق البيوت، وعدم قتال إلا من يرفع السيف على المسلمين؛ مصداقاً لقوله - تعالى -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]؟

والعجيب أن هذا القسيس الذي يصف الرحمة المهداة بما يصفه به؛ يُعدُّ من أقوى أنصار الدولة العبرية في اليمين الأمريكي! هذه الدولة التي قامت على أشلاء الشيوخ والنساء والأطفال، الذين ذبحتهم كالنعاج في مذابح مشهورة، وسجّلها التاريخ في صفحات الذل والعار. وقد بلغ في غيه ودعمه لهذه الدولة العنصرية الإرهابية؛ أن قال: «إن معنا ٧٠ مليون شخص، ولا شيء يمكن أن يصب غضب الجمهور المسيحي على رأس هذه الحكومة [يريد حكومة بلده أمريكا] أكثر من التخلي عن إسرائيل أو معارضتها في مسألة حيوية»!

وفي ١٤/ ٤/ ١٩٩٨م، نشرت جريدة «يو إس إيه تودي» الأمريكية مقالاً لفالويل ينتقد فيه إدارة الرئيس الديمقراطي بيل كلينتون؛ لما عدّه فالويل ضغطاً تمارسه إدارة كلينتون على إسرائيل للقبول بخطة السلام الأمريكية، وقال في مقالته تلك: «إن ضغط

أمريكا على إسرائيل يجب أن يُقلق كل من يأخذون على محمل الجد وعدَ إبراهيم بخصوص أرض إسرائيل»؛ وذلك في إشارة إلى إيمان الإنجيليين بأن الله وعد إبراهيم - عليه السلام - بأن يعيد أرض فلسطين لليهود.

فانظر - أيها القارئ الكريم - كيف يمجد وينصر قتلة الشيوخ، ومغتصبي الأرض، ومهلكي الحرث والنسل، ثم يطعن في الرحمة المهداة والنعمة المسداة ﷺ!

إن كلمة هذا الكافر في حق النبي ﷺ شر من كلمة سلفه الغوي المبين، عندما نال من موسى - عليه السلام - فقال[1]: ﴿يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩]، فمع ما في الكلام من تلبيس، إلا أن قتل موسى - عليه السلام - للقبطي حادثة عين قبل النبوة، لها حظها من الخطأ. وأما كلمة فالويل هذه؛ فمن جنس كلمة فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، يقول الأستاذ سيد قطب في تعليقه على هذه الكلمة: «فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال الوثني، عن موسى رسول الله - عليه السلام-: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]؟!

أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادئ؟ إنه منطق واحد يتكرر كلما التقى الحق والباطل،

(١) القائل هو الإسرائيلي الذي ساعده موسى - عليه السلام - في اليوم الأول، فقضى على عدوه القبطي، وقد ظن هنا أن موسى - عليه السلام - توجه إليه يريد أن يقتله، بعد أن وصفه - عليه السلام - بقوله: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨]. وينظر في ذلك تفسير الطبري وغيره.

والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان، على توالي الزمان واختلاف المكان. والقصة قديمة مكررة، تعرض بين الحين والحين»[1]؛ إنها كلمة الذين يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون، إنها من جنس كلمة قوم السوء الفاسقين: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] وهي الكلمة التي قيلت عن المسيح - عليه السلام - في التلمود، الذي ألفه اليهود وقدسوه: «لقد ضلل يسوع، وأفسد إسرائيل وهدمها»؛ فعلى أصحاب هذه الكلمات وأمثالها ينطبق قول القائل: «الشيطان يعظ»!

ويجدر هنا أن يُعلم أن حزب بوش قام في ١٦/ ١٠/ ٢٠٠٢م بتكريم كل من القسيسين (بات روبرتسون) الآتي ذكره و(جيري فالويل)؛ لمساهمتهما في دعم التيار اليميني المحافظ والحزب الجمهوري، وهو أمر له دلالات لا تخفى على الفَطِن.

■ ومثال آخر لرجال دينهم: القس بات روبرتسون (Pat Robertson)[2]، أحد مؤيدي بوش الابن، والذي كان له أثر كبير في فوزه بترشيح الحزب الجمهوري له للرئاسة في مارس/ آذار ٢٠٠٠م؛ فقد كان يقود الائتلاف اليميني المسيحي المؤيد له، وهو ما كشف عنه منافس بوش في الحزب (جون ماكين). وفي المقابل؛ فإن بوش يدعمه دعماً كبيراً[3]،

(١) في ظلال القرآن، ٦/ ٢٥٤.

(٢) قسيس إنجيلي، معروف باهتماماته السياسية وتأييده المطلق لإسرائيل، يمتلك عدداً من المؤسسات الإعلامية، من بينها: نادي الـ ٧٠٠، ومحطة فضائية تصل إلى ٩٠ دولة بأكثر من ٥٠ لغة، وهي محطة (البث النصراني)، وغيرها. وله برنامج تلفزيوني يصل إلى عشرات الملايين في الولايات المتحدة الأمريكية، كما أنه يقف خلف أكبر تحالف سياسي ديني في الحزب الجمهوري، وهو (التحالف النصراني).

(٣) قام البيت الأبيض في يوم الجمعة ٤/ ١٠/ ٢٠٠٢م بالإعلان عن منحة دينية قدرها نصف مليون دولار أمريكي للقسيس (بات روبرتسون). والجدير بالذكر أنها المنحة الأولى التي يمنحها البيت=

وقد أشرنا آنفاً إلى تكريم الحزب الجمهوري له مع (فالويل). ومن مظاهر هذا الدعم المتبادل: تصدر (نشيد المسيح!) افتتاح أعمال المؤتمر القومي للحزب الجمهوري؛ من أجل اختيار بوش مرشحاً رسمياً؛ حيث أعلن فيه تبنيه لأفكار تيار اليمين المسيحي.

يقول بات روبرتسون في برنامج هانتي وكولمز (Hannity@ Colmes) على قناة فوكس الإخبارية Fox News: «أنا أقول: هذا القرآن ما هو إلاّ سرقة من المعتقدات اليهودية... ثم استدار محمد [ﷺ] بعد ذلك ليقتل اليهود والنصارى في المدينة. أنا أقصد أن هذا الرجل كان قاتلاً سفاك دماء»، وقال: «أظن أن الإرهاب قد غدا تياراً وليس فقط عند حفنة من المتطرفين. إذا اشتريت مصحفاً؛ اقرأه بنفسك، فستجد عنفاً يبشر به».

وقد أُجبِر هذا الرجل على الاعتذار عن قوله هذا، ولكنه عاد ليقول في كتابه الذي صدر بعدُ باسم «الاسم» (The Name) ص٧١: «الإسلام أسسه مجرد فرد بشري مقاتل يُسمى محمداً [ﷺ]، وفي تعاليمه ترى تكتيك نشر الإسلام من خلال التوسع العسكري، ومن خلال العنف إذا كان ضرورياً»، وقال: «الإسلام بخلاف المسيحية؛ في تعاليمه الأساسية تعصب عميق ضد أصحاب الديانات الأخرى».

ويكفي أن نتأمل قوله عن النبي ﷺ: «إنه كان يدعو قومه إلى قتل المشركين... إنه رجل متعصب إلى أقصى درجة... إنه كان لصّاً وقاطع طريق.. ما يدعو إليه خديعة وحيلة... ٨٠٪ من القرآن نُقِل من نصوص النصرانية واليهودية... ثم استدار ليقتل اليهود»، ونقارنه بكلام اليهود في التلمود: «الناصري [أي: النصراني] هو الذي يتبع

= الأبيض لأي مؤسسة أو شخصية دينية.

تعاليم كاذبة، يبتدعها رجل يدعو إلى العبادة في اليوم الأول التالي للسبت»، وقولهم فيه أيضاً: «إن المسيح كان ساحرًا ووثنيّاً»، وقولهم: «إن يسوع الناصري موجود في لجات الجحيم بين الزفت والقار»، وكذلك: «لقد ضلل يسوع، وأفسد إسرائيل وهدمها»، لنزداد يقيناً وإيماناً بأن ملة الكفر واحدة، وصدق الله - جل في علاه - حيث يقول: ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٥٣] وقال - تعالى -: ﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [البقرة: ١١٨].

والتهم التي تلفظ بها بات روبرتسون؛ فيها من مغالطات أسلافه الماضين الشيء الكثير، وقد جاء رد بعضها في القرآن الكريم؛ كقول الله - تعالى -: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقوله - سبحانه -: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣]. وبعد هذا؛ فإن الرجل يكرر مغالطة صاحبه فالويل مرة أخرى، فيجعل مِنَ المفسدين - الذين فعلوا بالمسلمين الأفاعيل بمكة والمدينة، ونقضوا العهود والمواثيق، وعمدوا إلى قتل النبي مراراً، وقتلوا من أتباع دينه من قتلوا - ضحيةً، ويجعل المسلمين الأبرياء المضطهَدين مفسدين!

■ وهذا مثال ثالث لرجال دينهم: (جيري فاينز)[1]، الرئيس السابق للمؤتمر السنوي للكنيسة المعمدانية الجنوبية، وهو الرجل الذي عمّد بوش ليكون من الناصرين الأوائل

(١) هو راعي كنيسة جاكسون فيل في فلوريدا في الولايات المتحدة، وهو من أبرز المتحدثين في المؤتمر السنوي للكنائس المعمدانية الجنوبية، وهو أكبر مؤتمر ديني يعقد هناك في كل عام.

لسماحة العقيدة، والذي يمدحه بوش جهاراً، فيذكر عنه أنه من المتحدثين بصدق عن دينهم، يقول هذا الرجل عن نبينا ﷺ، وحاشاه مما يقول: «. . . شاذ، يميل للأطفال، وتزوج اثنتي عشرة زوجة، آخرهن طفلة عمرها تسع سنوات».

وهذا الكلام قول من قائله بغير عرفان، مع كذب بَيِّن لا برهان له به، ويكفي أن يعلم قائله أن النبي ﷺ تزوج زوجَه الأولى خديجة - رضي الله عنها - وهي في الأربعين من عمرها، وكانت تكبره بأكثر من خمسة عشر عاماً على المشهور، وما تزوج غيرها في حياتها أبداً إلى أن ماتت بعد نيف وعشرين سنة من زواجهما. وأنه لمّا بنى بعائشة - رضي الله عنها - في المدينة وهي ابنة تسع؛ لم ينكر أحد هذا، ولا تكلم به المنافقون الحاضرون، الذين هم في الحرص على الكيد للنبي ﷺ والطعن فيه مع (جيري فاينز) هذا وأمثاله سواء، ولكنهم أعقل من أن يزروا عليه ما تُسفّه به أحلامهم، مما يناقض واقعهم ومعهودهم.

فمعهود عندهم أن تُنكح المرأة إذا بلغت ذلك المبلغ من العمر، بل وقبل ذلك، ثم يكون البناء بها متى ما كانت صالحة له. وقد جرى زواج نبينا ﷺ على ذلك المعهود المقبول للفِطَر والعقول، فتزوج أمّنا عائشة - رضي الله عنها - لكنه ما بنى بها حتى بلغت التسع، مع أنه عقد عليها قبل الهجرة بثلاث سنين وهي بنت ست، فما له لو كان - بأبي هو وأمي - كما يقول الظالمون لبِث ثلاث سنين قبل أن يبني بها؟!

ثم أي شيء في زواج امرأة ولو كانت صغيرة، إن زُوِّجت من قبل ولي راشد، دأب على تدبير كافة ما يصلح شأن دينها ودنياها؟!

ومع ذلك فلا عجب من تهمة القوم؛ فإن لهم سوابق، وقد قيل:

إذا بغتت أشياء قد كان مثلُها قـديماً؛ فـلا تعتـدَّها بَغَتاتِ!

إن كلام هؤلاء يذكرنا بكلام قتلة الأنبياء من بني إسرائيل في المسيح ابن مريم وأمه؛ فقد اتهموها بالزنا والشذوذ، فقالوا في تلمودهم: «إن يسوع المسيح كان ابناً غير شرعي، حملته أمه خلال مدة الحيض من العسكري (بانديرا) بمباشرة الزنا». وفي العهد القديم (التوراة المحرفة) المقدس عند اليهود والنصارى؛ يرمون داود - عليه السلام - بالزنا بزوجة «أُوريَّا الحِثِّيّ» في فصل كامل، عُنونَ له بـ«خطيئة داود وخداعه»، فيزعمون أنه رآها تغتسل، فأُعجب بها، «فَأَرْسَلَ دَاوُدُ رُسُلاً وَأَخَذَهَا، فَدَخَلَتْ إِلَيْهِ، فَاضْطَجَعَ مَعَهَا وَهِيَ مُطَهَّرَةٌ مِنْ طَمْثِهَا، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى بَيْتِهَا، وَحَبِلَتِ الْمَرْأَةُ، فَأَرْسَلَتْ وَأَخْبَرَتْ دَاوُدَ وَقَالَتْ: «إِنِّي حُبْلَى»[1]، ثم إنه أمر قائد أوريا في الحرب أن يلقيه في مهلكة، فقُتل، «وَلَمَّا مَضَتِ الْمَنَاحَةُ؛ أَرْسَلَ دَاوُدُ وَضَمَّهَا إِلَى بَيْتِهِ، وَصَارَتْ لَهُ امْرَأَةً وَوَلَدَتْ لَهُ ابْنًا»[2]! والعجيب أن في ثنايا القصة ما يبين أن أُوريا الحِثِّيّ، هذا الذي صوروه مظلوماً، تزوج من تلك المرأة وهي طفلة (تنام في حضنه كأنها ابنته)، ومع ذلك لم ينتقد هؤلاء شيئاً من هذا، وجاؤوا يعيبون ما تقره العقول السوية!

وقريباً من هذا: طعنهم فيه ﷺ لتزوجه تسع نسوة، فسبحان الله! يطعنون في نبينا لتزوجه تسع نساء، ثم يذكرون عن سليمان بن داود - عليهما السلام - أنه «كَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةٍ مِنَ النِّسَاءِ السَّيِّدَاتِ، وَثَلاَثُ مِئَةٍ مِنَ السَّرَارِيِّ، فَأَمَالَتْ نِسَاؤُهُ قَلْبَهُ»[3]، وقالوا:

---

(١) العهد القديم، سفر صموئيل الثاني، الإصحاح الحادي عشر.

(٢) السابق.

(٣) العهد القديم، سفر الملوك الأول، الإصحاح الحادي عشر.

أولـع سلـيمان بنساء غربيات كثيرات . ومع أنه كان منهيّاً عن الزواج منهن ؛ إلاّ أنه فعل[1] . ويـزعمـون أن لـوطاً - عليه السلام - شرب الخمر ، وواقع ابنتيه البكر والصغيرة[2] .

ونحن إذ نبرأ إلى الله - سبحانه وتعالى - من تصديق مثل هذا الهراء ، ومن نِسبة هذه النقائص والمعايب إلى أنبياء الله المصطفَين ، الذين نؤمن بهم جميعاً ولانفرق بين أحد منهم ، بل نعد أي انتقاص لنبي من الأنبياء طعناً في ديننا وغَمْزَاً لنبينا ﷺ ؛ غير أننا نعجب ممن في ملتهم واعتقادهم نسبةُ مثل هذا لأنبيائهم ، ثم يأتون للتشنيع على ما أحله الله لرسوله ﷺ من الزوجات ، مع ظهور حكَمِه العظيمة ، وتضافر الأمارات الدالة على أن زواجه منهن - رضي الله عنهن - لم يكن مبعثه ما يزعمون .

وأخيراً يحسن التنبيه إلى أن إساءات هؤلاء القساوسة تجيء في مجامع مشهودة في أثناء مناسبات مقصودة ؛ فهم يعنون ما يقولون ، ويتعمدونه ويرتبون له ، فليست كلماتهم فلتات لسان غير مقصودة ؛ بل العداوة معلنة صريحة يُدْعى إليها ، وإلا لم يكن (جيري فاينز) ليختار الاجتماع السنوي في مدينة سانت لويس بولاية ميسوري الأمريكية ، ليلقي طعوناته في نبينا ﷺ ، ولم يكتف بذلك ؛ بل قال : «لن يقوم الرب بتحويلك إلى إرهابي يحاول تفجير الناس وأخذ أرواحهم» ، فالسياق كله طعن في نبي الإسلام ﷺ ودينه ، ومع ذلك يلقون تأييد الساسة .

وبعد كل هذا العداء السافر المبني على سلسلة من الأكاذيب المفضوحة ؛ يروون بغير حياء من واقعهم عن المسيح - عليه السلام - قوله : «٣٩ وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ : لاَ تُقَاوِمُوا الشَّرَّ ، بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضاً»[3] .

---

(١) السابق .

(٢) كما في سفر التكوين ، ١٩/ ٣٠ - ٣٨ وعنوان الفصل : خطيئة لبنتي لوط .

(٣) العهد الجديد ، إنجيل متى ، الإصحاح الخامس .

وقوله: «٤٤ أَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ، بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ، أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ[1]».

يروون هذا مع أنهم من أشد المناصرين للحروب الظالمة التي تشنها بلادهم على المسلمين، التي راح ضحيتها عشرات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال الأبرياء، مع أن هؤلاء المساكين لو كانوا أشراراً مسيئين لاستحقوا أن يدار لهم الخد الأيمن!

أهؤلاء حقّاً أتباع هذه التعاليم، أم أنهم بدعمهم العدوان الأمريكي الغاشم، وبموقفهم المتناقض من المسلمين واليهود، يصدق فيهم قول القائل:

تراهم يغمزون مَن استركوا ... ويجتنبون من صَدَقَ المِصاعا[2]؟!

ويحق لنا أن نتساءل وإن كان الجواب واضحاً:

أبعضُ الظالمين وإن تعدَّى ... شهيٌّ الظلم مغفورُ الذنوبِ؟[3]

ومن قبيح فعل هؤلاء - مما يندرج تحت العداء والتطاول على دين الله - محاولة بعضهم إناطة أسباب بعض مظاهر الغلو في الدين بدعوات خرَّجت أكابر الدعاة والهداة، ويغفلون عن أفعالهم هذه وأفعال من يناصرونهم من قتلة الأنبياء ومن والاهم، وهم يعلمون أن لكل فعل ردة فعل معاكسة له في بعض النفوس.

---

(١) السابق.

(٢) البيت للقطامي التغلبي (ت ١٣٠)، وهو من البحر الوافر، استركوا: استضعفوا، والمصاع: الضراب والجلاد بالسيوف.

(٣) أصل البيت لأبي فراس الحمداني، ولفظه:

(وبعض الظالمين وإن تناهى ... شهي الظلم مغتفر الذنوب) وهو من البحر الوافر.

القسم الثاني – التطاول بالفعل:

سبق الكلام عن عدة محاولات لانتهاك حرمة الجسد الشريف للنبي ﷺ؛ وذلك بمحاولة سرقته من المسجد النبوي، حرسه الله. ويقرب منه ما دعا إليه بعض الكتاب الأمريكيين؛ من ضرب مكة والمدينة بالقنابل النووية.

ومن المظاهر المعاصرة الحادثة التي لم تكن معروفة فيما مضى: ما سبق الكلام عنه؛ من عرض لأفلام تتناول حياة النبي ﷺ، وكذلك تأليف الروايات التي تتطاول على مقامه الرفيع، وأخيراً هذه الرسوم الكاريكاتورية التي ظهرت في الدنمارك فأثارت أزمة عارمة.

إن رسامي الدنمارك ليسوا أول من أحدث أمثال هذه الرسوم؛ فقد قام أحد رسامي الكاريكاتير العرب – ممن يحملون أسماء المسلمين – برسم كاريكاتير قبل سنوات، يُعَرِّض فيه من طرفٍ خفيٍّ بنبينا ﷺ؛ حيث رسم ديكاً حوله تسع دجاجات، وعلق بقوله: «محمد جمعة زوج التسعة»، وقد ثارت القضية حينها، وكتبت ردود في مجلة لواء الإسلام وغيرها.

الجديد في الأمر أن الدنماركيين المعتدين – ومن آزرهم – جاؤوا بما لم يُسبقوا إليه؛ فقد جاهروا بنشر رسومهم المعبرة عن تهم مختلفة ورزايا متعددة، وصرحوا بأن المقصود بالرسوم هو رسول الله ﷺ، ولم يكتفوا بذلك، حتى أكدوا قصدهم بتكرار نشرها على صفحات الإنترنت وغيرها، بل تمادى بعضهم في الرسم بعد احتجاجات المسلمين، ووضع بعضهم لتلك الرسوم مقاطع مرئية فيديوية متحركة، وخصصت صفحات تجمع ما صدر من تصوير لنبي الإسلام ﷺ خلال العقود الأخيرة كلها، وقد امتلأت صفحات الإنترنت بكل ذلك وبما هو أشد.

ونتيجة لهذه المجاهرة وهذا الاستفزاز المتصاعد؛ جاءت ردود الأفعال الكبيرة في العالم الإسلامي، وفي كل مكان فيه جالية إسلامية.

ومهما يكن من أمر، وسواء كان التطاول بالقول أم كان بالفعل؛ فالهدف واحد، وهو حرب هذا الدين والكيد لأهله، وصدق الله حيث يقول: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

الوقفة الثامنة

أسباب التطاول على مقدسات المسلمين

....

إن لهذا التهجم والتطاول على مقدسات الأمة وعلى نبيها ﷺ أسباباً متعددة، ويحسن بنا أن نتعرف على هذه الأسباب؛ كونها خطوة لا بد منها قبل وضع خطط مواجهة هذا التحدي السافر، ويمكن أن نجمل هذه الأسباب فيما يلي:

أولاً: العداوة القديمة بين الحق والباطل: وهذا السبب من أهم دوافع هذا التطاول؛ فلما كانت حجج الحق ظاهرة قاهرة، وكانت حجج الباطل داحضة زاهقة، فإن أهل الباطل يعمدون إلى الطعن والتطاول والإيذاء، ولهذا كان تَنَقُّصُهم لأهل الفضل والكمال دليلاً على إفلاسهم، وعجزهم عن مقارعة الحجة بمثلها والبرهان بمثله.

ثانياً: الجهل بحقيقة الإسلام ونبيه - عليه السلام -: فمما لا شك فيه أن الكثيرين في الشرق والغرب، لا يعلمون عن حقيقة الإسلام وحقيقة النبي ﷺ شيئاً، بل إن كثيراً منهم لا يعلمون عنهما إلا معلومات مشوهة مغلوطة، وهذا قد يدفع بعضهم للتطاول جهلاً.

ثالثاً: انحراف كثير من المسلمين عن دينهم الحق: وانتشار البدع والخرافات والممارسات الخاطئة المخالفة لتعاليم الإسلام، وإلصاق جهال المسلمين بعضَ هذه الممارسات بالإسلام، وعدها جزءاً منه. فلا شك أن من ينظر إلى هذه الممارسات على

أنها من دين الإسلام؛ سيظن أنه دين خرافي يصادم العقل الصحيح، وهذا قد يدفعه لمهاجمته والتطاول عليه وعلى نبيه، عليه السلام.

رابعاً: الواقع المتردي الذي تعيشه غالبية بلاد الإسلام: حيث تقبع في ذيل ركب الحضارة المادية، وفيها نسب عالية من الجهل والفقر والمرض. ففي ضوء ذلك، ومع انتشار الأمراض الأخلاقية في المجتمعات المسلمة؛ كالغش والرشوة والمحسوبية، ومع تدني مستويات النظافة، وتفشي الفوضى والعشوائية في حياة المسلمين؛ فإن شياطين الجن والإنس يوحون للناس أن كل ذلك إنما هو بسبب الإسلام؛ إذ هو الجامع الوحيد بين هذه البلاد وليس سواه، وهذا مما قد يروج على بعض الجهلة وضعاف العقول فيتطاولون ويطعنون، وإلا فإن الإسلام يحارب كل هذه السلبيات، التي ما وقع أهلها فيها إلا لبعدهم عن تعاليمه.

ويكفي لكي ندرك خطورة هذا الأمر: أن نتذكر الكلمات التي كثيراً ما سمعناها من مسلمين أسلموا في الغرب أو الشرق، ثم جاؤوا لبلاد الإسلام؛ فراراً بدينهم، أو ليتعرفوا على الإسلام من منابعه، فلما رأوا واقع المسلمين قالوا: «الحمد لله أننا قد عرفنا الإسلام قبل أن نعرف المسلمين!»، وما ذلك إلا لكون كثير من أحوال المسلمين تصد عن دين الله ولا تقرّب منه، والله المستعان.

خامساً: ضعف بني الإسلام وقلة حيلتهم: وإلاّ فالغرب يحترم القوي، ولهذا لا نجد الكاثوليك اليوم يطعنون في البروتستانت، ولا العكس، وكذلك شأن الطائفتين مع اليهود، مع أن محاكم التفتيش التي أقامها بعضهم لبعض، وتاريخهم الغابر - الذي شهد الكثير من الحروب الطائفية -؛ يبيِّن حجم الاختلاف بينهم، ولكن القوي يُحترم، كما قيل:

تراهم يغمزون من اسْتَـرَكُّوا ويجتنبـون من صدق المِصَاعا

سادساً : تطاول بعض أبناء المسلمين من المنافقين والملحدين وأشباههم على الإسـلام، وعمالتهم للغرب، ودلالتهم أعـداءه على مواطن الشبه، فأغرى ذلك الأعداء بالتطاول والنيل.

قال الله - تعالى - : ﴿ **وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [التوبة : ٦١]، وأخبارهم في هذا كثيرة، غير أنهم يتسترون ويتسارون بهذا فيما بينهم، فإذا بلغ رسول الله ﷺ، أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم ما فعلوه. قال الله - تعالى - : ﴿ **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ** ﴾ [التوبة : ٧٤].

وهذه واحدة من أسباب عصمة دمائهم في ذلك العهد.

الوقفة التاسعة

الموقف الصحيح من جهل الغرب بالإسلام

ذكرنا فيما سبق أن الجهل بحقيقة الإسلام ونبيه - عليه السلام - واحد من أسباب التطاول عليهما. وبناء على هذا السبب؛ فقد شاعت بين المسلمين - في أثناء التعدي الدنماركي على النبي الكريم ﷺ - عبارة غير دقيقة، اتُّخذت شعاراً، ونصها: «لو عرفوه لأحبوه»، وهذا الشعار طبع في أذهان الكثير من المسلمين أن الإشكال مع الغرب جاء من جهة عدم تصورهم وفهمهم للإسلام أو لنبيه ﷺ، وهذا بلا شك خطأ كبير يكذبه الواقع، وهو مخالف لما بينه لنا ربنا - سبحانه وتعالى -؛ حيث يقول: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]، ويقول - عز وجل -: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

إن كثيراً منهم يعرفون الكتاب، ويعرفون أن ما جاء به القرآن الكريم هو الحق من ربهم، ثم يكتمونه حسداً وبغياً، وكثيراً منهم يعلمون أن محمداً ﷺ هو رسول الله حقاً وصدقاً، ومع ذلك أبوا إلاّ أن يناصبوه العداء في الحاضر كما ناصبه أسلافهم العداء في الماضي وهم يعلمون، ولهذا أثنى الله على من خالف هواه

منهم، وانصاع للحق الذي عرف، فقال - سبحانه -: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وفي قصة إسلام عبد الله بن سلام الحبر البحر - رضي الله عنه - في صحيح البخاري وغيره، ما يبين هذه الحقيقة بجلاء؛ حيث دعا رسولُ الله ﷺ اليهودَ قبل أن يعلموا بإسلام حبرهم عبد الله بن سلام - رضي الله عنه -، فقال لهم: «يا معشر اليهود، ويلكم! اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وأني جئتكم بحق، فأسلِموا!» قالوا: «ما نعلمه»، قالوا للنبي ﷺ، قالها ثلاث مرار. قال: «فأي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟» قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا. قال: «أفرأيتم إن أسلم؟» قالوا: حاشى لله ما كان ليسلم! قال: «أفرأيتم إن أسلم؟» قالوا: حاشى لله ما كان ليسلم! قال: «أفرأيتم إن أسلم؟» قالوا: حاشى لله ما كان ليسلم! قال: «يا ابن سلام، اخرج عليهم» فخرج فقال: يا معشر اليهود، اتقوا الله! فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق. فقالوا: كذبت! فأخرجهم رسول الله ﷺ»(١).

وهذه حال النصارى أيضاً؛ فليسوا بمنأى عن نهج هؤلاء، وقد ثبت عند البخاري وغيره خبر أبي سفيان مع هرقل الروم عظيم النصارى، يوم جاءه كتاب النبي ﷺ، وفيه: «فقال [يعني هرقل] للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو

(١) صحيح البخاري، ٣/ ٧٢ - ٧٣ (٣٩١١).

نسب؛ فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا؛ فقلتُ: لو كان أحد قال هذا القول قبله؛ لقلت: رجل يأتسى بقول قيل قبله.

وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا؛ قلتُ: فلو كان من آبائه من ملك؛ قلتُ: رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا؛ فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه؛ وهم أتباع الرسل.

وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون؛ وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

وسألتك: أيرتد أحد سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا؛ وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشتُه القلوب.

وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا؛ وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك: بم يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف؛ فإن كان ما تقول حقّاً؛ فسيملك موضع قدمي هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم! فلو أني أعلم أني أخلص إليه؛ لتجشّمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه!

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحيةَ إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى

هرقل، فقرأه فإذا فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد:

فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنّ عليك إثم الأريسيين، و ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]).

قال أبوسفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب؛ كثُر عنده الصخب وارتفعت الأصوات، وأُخرجنا، فقلت لأصحابي حين أُخرجنا: لقد أَمِر أمرُ ابن أبي كبشة[1]، إنه يخافه مَلِك بني الأصفر. فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام.

وكان ابن الناطور - صاحب إيلياء وهرقل - أسقفاً على نصارى الشام، يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يوماً خبيثَ النفس، فقال بعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك! قال ابن الناطور: وكان هرقل حزَّاءً ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الخِتَان قد ظهر، فمن يختتن من هذه الأمة؟ قالوا: ليس يختتن إلا اليهود، فلا يهمنك شأنهم، واكتب إلى مدائن ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود. فبينما هم على أمرهم؛ أُتي هرقل برجل أرسل به ملك غسان، يخبر عن خبر رسول الله ﷺ، فلما استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا!

(١) قالها يوم كان مشركاً، يريد بذلك النبي ﷺ، على عادة العرب في التنقص بنسبة الرجل إلى جد غامض.

فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن، وسأله عن العرب، فقال: هم يختتنون. فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر. ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية، وكان نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص، فلم يَرِم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ وأنه نبي، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغُلِّقت، ثم اطَّلَع فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حُمُرِ الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غُلِّقت. فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان؛ قال: ردوهم علي، وقال: إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل[1].

فأخطأ من ظن أن سبب العداوة من جميع اليهود والنصارى لنبينا ﷺ عدم معرفتهم به أو بصدق رسالته، نعم! هو سبب موجود في بعضهم؛ فينبغي ألا يُغفل ويُهمل، كما ينبغي ألا يُغالَى فيه ويعمَّم؛ فإن هذا من دواعي تفاقم الإشكال لا حله؛ لأن التعميم سيكون حكماً مَبنياً على محض الوهم؛ إذ هناك في الغرب خمس طوائف، ليس من الصواب التعامل معهم كأنهم طائفة واحدة:

= **فالطائفة الأولى: طائفة المستكبرين المعاندين**، باطري الحق وغامطي الإسلام، وهي الطائفة التي تتولى كِبر محاربة الحق عبر التاريخ، وهي اليوم تؤلب الإعلام، وتوجه الرأي ضد الإسلام ونبيه - عليه الصلاة والسلام، فهذه ينبغي أن تخاطب بما يفضح أهلها ويبين تناقضهم، ويظهر للناس حنقهم وحقدهم، وذلك بحسب ما تقتضيه المصلحة وحالة الإسلام قوة وضعفاً.

---

(١) البخاري، ١/ ١٧ - ١٨ (٧).

= **والطائفة الثانية: طائفة الجهلة المغرور بهم، وأهلها لا يعرفون عن الإسلام إلاّ** ما صَوَّرته الطائفة الأولى، فهؤلاء المساكين يجب أن يُستنقَذوا بواسطة بني الإسلام، فيُعَرَّفوا بنبي الثقلين ﷺ وبدين الحق، فتعرَض لهم صورته المشرقة في سكينة وهدوء؛ فإن أبوا الانصياع للحق وأعرضوا ألحِقوا بالطائفة الأولى.

وينبغي أن نعي أن الطريقة المَرْضيَّة لتعريفهم بالإسلام لا تكون بعرض بعض حقيقته وإنكار بعضها، أو التعمية عنه، بل يُعرَض دين الله كما هو، وتبيَّن محاسنه ويذاع فضله على شرائعهم وقوانينهم بالحجج والبينات، ودحض الشبه والترهات التي يقذف بها ملابسة هؤلاء من الطائفة الأولى، ويخص منها بالعناية ما أذيع وأشيع، ويرعى في ذلك التدرج والانتقال إلى مسألة بعد الفراغ من التي قبلها. ومع هذا ينبغي أن يُعلَم أن التعريف بالنبي ﷺ يشمل أموراً؛ منها:

- التعريف به وعرض أخباره ابتداء.

- تنقية الصورة المشوهة بالشبه الباطلة.

- بيان أخطاء المسلمين ومعالجتها، على المستوى الداخلي والخارجي؛ فعندما تُزَوَّرُ ممارسات باسم الإسلام خطأً، ويُزعم أن محمداً ﷺ جاء بها، ثم لا يوضح بجلاء أن الإسلام منها براء؛ عندها قد يلتبس الحق بالباطل في أذهان كثيرين، ولا ينبغي أن يسهم المسلمون بممارستهم الخاطئة في تشويه صورة الإسلام وصدِّ الناس عنه.

= **أما الطائفة الثالثة: فهي بين هــؤلاء وهــؤلاء، وهــم المعــرضون، الـذين** لا يريدون معرفة الحق وتمييزه من الباطل، فيصمون آذانهم، ويستغشون ثيابهم؛ إما لهوى، أو ظلم، أو جهل، وهؤلاء ينبغي أن يُرَغَّبُوا في الإسلام، ويُنَبَّهوا إلى أهمية

النظر فيه؛ فإن أعرضوا ألحقوا بالطائفة الأولى كذلك.

= **وأما الطائفة الرابعة: فهم المنصفون من الغربيين**، الذين عرفوا شيئاً من الإسلام، فبانت لهم تعاليمه السمحة، وتشريعاته الحكيمة، وعرفوا شيئاً عن نبينا ﷺ فعظموه واحترموه، ووقفوا موقف أبي طالب من محمد ﷺ، وقاموا مقام غيره ممن حمى بعض أهل الإسلام وذب عنهم، فهؤلاء قلة. ومن هؤلاء على سبيل المثال: «جوسلين سيزاري» الباحثة الفرنسية، و«روبرت فيسك» الصحافي البريطاني، و «ماركوس بورج» أستاذ علوم الدين في جامعة أوريغون الأمريكية، و «فرانسوا بورجا» الباحث الفرنسي البارز، وكذلك «كارين أرمسترونج» الكاتبة البريطانية والراهبة الكاثوليكية سابقاً، وصاحبة العديد من المؤلفات عن الإسلام والمسيحية واليهودية، وربما كان منهم كذلك: الأمير الإنجليزي «تشارلز»؛ بشهادته النادرة التي أسقط فيها صفة التطرف والبغي التي يحاول الإعلام الغربي أن يربطها بالإسلام، إلى جانب دفاعه عن فضل الحضارة الإسلامية على القارة الأوروبية وعلى الحضارة الغربية بصفة عامة. فأمثال هؤلاء ينبغي أن يُعرف لهم فضلهم، وأن يُكافَؤوا عليه، وأن يُحرص على دعوتهم وهدايتهم؛ فليس هؤلاء كغيرهم من بني جنسهم.

= **وأما الطائفة الخامسة والأخيرة: فهم من أسلم من أهل الغرب**، وهؤلاء من الذين أثنى الله عليهم في كتابه، فينبغي أن نكون معينين لمحسنهم، حادبين على مسيئهم، حريصين على هدايته وتوجيهه التوجيه الأمثل.

وموقفنا هذا في التفرقة بين طوائف الغرب المختلفة هو مقتضى الإنصاف الذي علّمناه ديننا؛ إذ بين لنا ربنا - سبحانه وتعالى - أن أهل الكتاب ليسوا صنفاً واحداً، فقال - عز وجل -: ﴿**لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ**

وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وبين أن ممن بقي منهم على دينه أهل أمانة، ومنهم أهل خيانة، فقال - سبحانه -: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فإن سوَّينا بين هؤلاء وهؤلاء؛ لم نسلم من إفراط أو تفريط، وظلم لهم أو لأنفسنا، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

الوقفة العاشرة

تحرير مفهومي حرية التعبير واحترام الأديان والمقدسات

....

من الأمور المتكررة كلما وقعت حادثة من حوادث التطاول على الإسلام ومقدساته: أن تثار زوبعة جدلية عن احترام المقدسات من جهة، واحترام حرية التعبير من جهة أخرى؛ فبينما يرى أهل الإسلام أن التطاول على دينهم ومقدساتهم من المحرمات التي ينبغي ألا تمس؛ يتذرع أهل الكفر والإلحاد بدعاوى حرية الفكر والتعبير. ونحن في هذه الوقفة نسعى لتجلية الأمر، وبيان تلبيس أدعياء الحرية الذين يكيلون بمكيالين، ويتترسون خلف الشعارات البراقة؛ ليحصلوا على مرادهم؛ بالنيل من ديننا ورموزنا.

لقد شاعت عند الغربيين منذ قرن من الزمان عبارة تقول: «حقك في أَرْجَحَةِ قبضتك ينتهي حيث يبدأ أنفي»، أو بعبارة أخرى: «حرية أي إنسان تنتهي عندما تبدأ حرية الآخرين». ولعل مضمون هذه العبارة أمر بدهي، كما أن ما يَرِد عليها من قيود أمر بدهي كذلك، ومن ذلك ما قاله السياسي الأمريكي، نجم المحافظين الصاعد، والمدافع عن الحريات الفردية الشهير بول يعقوب (Paul Jacob)؛ إذ قال ما حاصله: «إنك قد تملك الحق في أرجحة قبضتيك حتى تستقر، ليس فقط على رأس أنف صاحبك؛ بل أبعد من ذلك بنصف بوصة إلى حيث يتكوم أنفه، وذلك في حالات المجازاة بالمثل،

أو الدفاع عن النفس، شريطة ألا يصل ذلك إلى حد أبعد من: العين بالعين».

ولعل هذه أمور بدهية لا يجادل في مجملها عاقل، غير أن الجدال انتصب في بعض الصور والتطبيقات التي تُلحق بها. والحق أن كثيراً من الأمثلة التطبيقية قد تكون محل نظر وتأمل، فيكتنف القول بأنها من قبيل تلك البدهيات حق وباطل، بَيد أن الجدل في بعضها الآخر من قبيل إنكار البدهيات والاعتراض بالجدل المحض؛ من أجل تسويغ واقع منحرف باسم الحرية.

ولعله مر بك يوماً - أيها القارئ الفاضل - أحد المجادلين في مسألة واضحة، محاولاً تسويغ الخطأ الذي أخطأه، ولعلك لا تنسى أي شيء انقذف في رُوعِك تجاه ذلك المكابر باطر الحق، وغامط الناس، المعرض عن الانصياع للصواب، وحقاً:

مَن ناطَ بِالعُجْبِ عُرى أَخلاقِهِ نيطَت عُرى المَقتِ إِلى تِلكَ العُرَى[1]

وحتى لا يكون هذا، فتكثر القبضات الطائرة والأنوف المحطمة، ولغيره من الأمور كذلك؛ وضع الحقوقيون قوانينهم الوضعية؛ لتكفل عدم المساس ببعض تلك الحريات البدهية، وإن أدى الأمر إلى منع حرية العابثين بحريات الآخرين باسم الحرية، ولو عن طريق الحبس، بل القتل.

ولكن، هل يستقل العقل بوضع قوانين تضبط الحريات؟

لعل جوابنا عن هذا السؤال يسهم في طرح الرؤية الإسلامية لتلك القوانين:

إن من استقلوا بعقولهم لوضع قوانين الحريات وغيرها؛ قد زلّوا في مواضع كثيرة من تلك القوانين؛ ولا أدل على ذلك من التعديلات والاستدراكات التي تطرأ على

(١) البيت لابن دريد الأزدي (ت ٣٢١)، وهو من بحر الرجز.

تلك القوانين باستمرار، على الرغم مما بذل لأجل وضعها، وما ضاع من جهد ووقت ومال.

وهذا الزلل وتلك الاستدراكات، أمر من الطبعي أن يعرض لمن خرج من البشر عن دائرة ضوء الوحي المنزل مِن عليم بخلقه لطيفٍ خبير. وإن فرضنا أنه ليست لهم أهواء وعُجَرٌ وبُجَر، فكيف إذاً كانت ثَمَّ؟

إن جمهور الأمم والشعوب يقرون بوجود خالق لهذا الكون، الذي لم يخلق نفسه بنفسه، وقد دل هذا الكون وما اشتمل عليه من نواميس وأحكام على أن خالقه عليم حكيم سميع بصير خبير قدير مريد، متصف بصفات الكمال ومنزه عن النقائص.

ولن يجد أحد جواباً صحيحاً عن سبب حدوث الحوادث، ووجود كل ما هو ممكن الوجود من الموجودات، فيبيّن سبب وجود ما وجد منها، وسبب عدم ما لم يوجد منها؛ إلاّ إذا أقر بخالقٍ تلك بعض صفاته، ولا تجري عليه أقيسة الشبه بالخلق، ثم بعدها يصح أن يسند إليه ترجيح طرفي الوجود أو العدم. وأما من أنكر ذلك، وقَصَرَ وجود ما وجد على الأسباب فحسب؛ فإن هذا سيسوقه إلى سلسلة مجهولة، وسيؤدي به إلى التسلسل الباطل عند العقلاء.

بعبارة أخرى، فإن كل ما يشاهده الإنسان حوله من مخلوقات، أو يحس به بحاسة من حواسه؛ هو مما يحتمل الوجود والعدم، وليس أحد هذين الاحتمالين بأولى من صاحبه؛ فحيث إن هذه المخلوقات قد خرجت إلى حيز الوجود، فهذا يعني رجحان احتمال الوجود بالنسبة لها على احتمال العدم، ومحال عقلاً أن يكون هذا الترجيح بلا مرجح، فدل هذا على وجود خالق لهذه المخلوقات جميعاً، رجَّح بعلمه وقدرته وإرادته جانبَ الوجود فيها على جانب العدم. وقد لفت ربنا - سبحانه وتعالى -

أنظار الكافرين المنكرين ربوبيته وألوهيته لهذه الحقيقة، فقال عز من قائل: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، قال ابن كثير - رحمه الله -: «أي: أَوُجِدوا من غير مُوجِد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً»[1]. ولأن هذا الجواب مما فطر الله عليه الخلق؛ لم ينكره منهم إلا مكابر. ولهذا قال جبير بن مطعم - رضي الله عنه - وكان فيمن جاء النبي ﷺ في أسارى بدر يوم كان على الكفر: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٧]؛ كاد قلبي أن يطير»[2]، وفي رواية: «وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي»[3].

وحيث إن العقلاء قد أقروا أن خَلْق الخالق - سبحانه وتعالى - كان مُعجِزاً مُحكَماً، فكذلك لن يسعهم أن ينكروا أن أمره وتشريعه الباقي لا بد أن يكون مُعجِزاً مُحكَماً كذلك.

ولهذا كان من استقل بعقله في وضع القوانين، وخرج عن نور ومحددات الوحي المنزَّل ممن عِلمُه كامل كما قدرته؛ بمنزلة من انحاز - في أرض زرعت بالألغام - نحو رقعة منها مظلمة مليئة بسبل الرَّدى؛ فأنى لمثل هذا السلامة ما لم يرجع فيسلط أضواء الوحي على طريقه، ويحسن قراءة محدداته فيها؟

(١) تفسير ابن كثير، ١٣/ ٢٣٨.
(٢) البخاري، ٣/ ٢٩٧ - ٢٩٨ (٤٨٥٤).
(٣) البخاري ٣/ ٩٥ (٤٠٢٣).

نعم، قد يرشده عقله وما أوتي من وسائل حس لتجنُّب ما نتأ أو غار من بعض العوارض، لكنه لن يسلم من جميعها؛ إذ لا يسلم من جميعها إلاّ من شذ، وليس ذلك بفضل العقل الذي لا يعلم - فليس مع صاحبه الناجي غير الجهل - لكنه بفضل الله الذي سلّم وألهم.

وقد يقول قائل: لم هذا التصوير؟ ولم لا يكون العقل هو السراج الذي ينير الطريق للبشرية، فيأخذ بيدها - حال ترقّيه من درجة لأخرى - إلى سبيل الرشاد؟

والجواب يتلخص في أن العقل آلة استنباط واستنتاج، وهو يعمل وفق معطيات الواقع التي يقود إليها الحس. ووفقاً لمعطيات الحس هذه؛ يلتذ الإنسان أو يتأذى، وبناء على ذلك يعلم المرء بعقله ملاءمة الفعل له أو منافاته. وحيث إن الأفعال كثيراً ما تتعارض فيها الرغبات - فقد يلتذ المرء بما يتأذى به غيره - فإن الحكم العقلي لكل منهما سيتباين وفقاً لرغباته ومصالحه. كذلك، فإن أحاسيس الناس تضطرب في كثير من الحالات تجاه بعض الأمور، وتختلج مشاعرهم عندها، وهنا يتعطل استدلال العقل بالحس؛ لاضطرابه، فيحتاج إلى ما يضيء له الطريق.

وزيادة على هذا المعنى معنى آخر: فقد لا تختلف حواس الناس، لكنها تعجز عن إدراك بعض الأمور؛ نظراً لقصورها وحدودها التي لا تتجاوزها قدرة البشر، هذا مع أن للشيء الذي عجزت عن إدراكه أثره؛ فالعين - على سبيل المثال - قد تحتاج حتى تبصر - مع توافر شروط الرؤية وانتفاء موانعها - إلى أمر خارج عنها؛ كالعدسة المكبرة، وذلك إذا كان ما يراد إبصاره خارجاً عن حدود قدرتها.

وحيث كان الأمر كما تقدم، فإن العقول البشرية تحتاج للحكم على كثير من الأمور والأفعال إلى أمر خارج عنها، يُعرِّفها: هل هذا الفعل - من حيث هو - سبب للذم أو

العقاب أم لا؟ كما أنها تحتاج إلى معرفة مقدار الذم أو العقاب الذي يستحقه مَنْ قارَف ما اتفقت العقول على قبحه، واختلفت في مقدار جزائه.

والواقع خير شاهد على هذا الاحتياج؛ إذ لو اتفقت العقول البشرية الصحيحة على مثل هذه الأمور لاكتفينا بحكم العقل؛ لأنه سيكون واحداً، وهذا ما يزيفه الواقع حتى في المجتمع الواحد؛ حيث يتغير ويتبدل رأي عقلائه قرناً إثر قرنٍ وجيلاً إثر جيل.

وليس هذا الأمر الخارج عن العقول البشرية سوى وحيِ مَنْ خلق فسوى، وقدّر فهدى، فمن صنع شيئاً فهو أدرى بخصائصه وما يناسبه فيصلحه، وما لا يناسبه فيفسده، ولله المثل الأعلى.

التفريق بين نظرة الإسلام ومعتقد أهله في القوانين البشرية، وبين التعامل مع واقعها:

إذا تقررت تلك النظرة للقوانين - التي قد يكون التعامل مع بعضها مفروضاً من منطلق قوة الأعداء وضعف الأمة - فإن هذا لا يمنع من التعامل معها بحكمة؛ وفقاً لفقه القدرة ومقتضى المصلحة الشرعية، مع بقاء الرأي والمعتقد في تلك القوانين موافقاً لما تقتضيه النظرة الإسلامية. فإذا اعتدلت موازين القوى، وتغيرت الطاقات والقدرات، وأمكن صياغة تلك الأحكام وفقاً للنظرة الشرعية؛ فبِها ونِعمَتْ؛ وإلا فإن المدافعة تظل قائمة، وتبقى نافذة بيان الرأي وإثبات جدارته وصلاحيته مشرعةً، يمكن من خلالها إذاعة حكم الإسلام ورؤاه في أمثال تلك القوانين، وهذا من سبل الدعوة إليه، شريطةَ أن يقوم بذلك المؤهلون العالمون بالشرع والواقع.

أما التعامل مع واقع تلك القوانين المفروضة، فيكون بالاستفادة مما تنص عليه مِنْ

حَقٍّ لا يخالف شرائع الإسلام في الجملة؛ كاحترام الأنبياء مثلاً، والعمل في المقابل على إخضاع الباطل منها لقوانين أخرى مجملة تعارضها، مثلما يفعل الغربيون عند مساسهم بالمعتقدات الدينية للمسلمين، وعدم احترامهم لما يُجِلّون؛ كتطاولهم على نبينا ﷺ بحجة حرية التعبير، فهذه الصورة يمكن أن تُعكس في المجتمعات الإسلامية، والمدافعة في هذا الإطار بحسب الطاقة.

الوقفة الحادية عشرة

تطبيق عملي: قوانين حرية التعبير واحترام الأديان نموذجاً

....

إذا تقرر ما سبق، فإن العلاقة بين مفهومي حرية التعبير واحترام الأديان من المسائل المجملة؛ فلا يمكن أن نقبلها جملة، ولا يمكن أن نردها جملة.

فاحترام الأنبياء مثلاً قضية محل اتفاق؛ فيمكن تفعيل القوانين الدولية المتعلقة بها لتقريرها والاستفادة منها والأمر بها، وعقاب من يخالفها بأقصى ما يتاح لنا، مع أنه لايُتوقع أن توافق النتيجةُ الحكمَ الشرعي المقرر عند بني الإسلام لمزدري الأنبياء؛ إذ إن للأنبياء عند المسلمين مكانة لا تدانيها مكانتهم عند أهل الكتاب - مثلاً - الذين يوجد في بعض نصوص كتبهم - المحرفة كما نجزم والمعتمدة عندهم - ذِكر لما لا يليق بحقهم، كما مر معنا قريباً، وكذلك فإن حجم العقوبة لن يكون وفق ما يقرره الشرع الحنيف من صرامة، ومع ذلك فالعمل على تخلية الأرض من ازدراء الرسل - عليهم الصلاة والسلام - أو التقليل منه مطلب شرعي، ومقصد إسلامي، يُسعى إلى تحقيقه بما في الطاقة.

أما إذا اقتضت قوانين حرية التعبير وإطلاق الحريات الدينية تعدياً على ثوابت المجتمع

المسلم، وإظهاراً للمنكر بين أهله، ودعوة للردة عن الدين أو إذناً بها، فحينها ينبغي أن يحسم ذلك بما أمكن، ويستفاد في ذلك مما تقرر عند المخالفين.

وهذا التفريق بين نظرتنا إلى تلك القوانين وانتقادنا للأسس التي قامت عليها من جهة، والتعامل معها كونها أمراً واقعاً بحكم الضرورة الوقتية من جهة أخرى؛ ليس بالأمر المستغرب؛ فهو من باب ما لا يُدرَك كله لا يترَك كله، ومن باب دفع أكبر المفسدتين، وللضرورة أحكامها كما يقال. أما حين التمكن والقدرة فلا مجال لأنصاف الحلول.

لكن ما يستغربه بعضُ مَنْ لم يدرك حقيقةَ أهل الكفر وما يكنونه لأهل الإسلام؛ هو تعامل الغرب في كثير من الحالات مع هذه القوانين - قوانين حرية التعبير وقوانين احترام المقدسات - بازدواجية؛ فالغرب ليس واقعاً تحت حكم الضرورة في التعامل معها، إذ هو مَنْ سنّ هذه القوانين ووضعها باختياره الحر.

ازدواجية الغرب في التعامل مع قوانين الحريات: الدنمارك نموذجاً:

لقد وضع البشر - كما بيّنا - قوانين وتشريعات تضبط ما رأوه حقوقاً وتحميها، وتلك القوانين والتشريعات ليست كلها باطلاً محضاً؛ بل إن بعضها لا يخلو من حق ظاهر، ومنها ما هو عالمي التزمه ساسة الدول جميعاً، فضلاً عن واضعيها.

ومن المبادئ المقررة في التشريعات الوضعية الحديثة: ضمان حرية الأفراد بما لا يتعارض أو ينتقص من حرية الآخر، إلاّ أن التزام الغرب بهذه المبادئ يضعف عندما يتعلق الأمر بغير الغربي، فيتفلت بعض دعاة الحرية من هذه المبادئ. وبينما يوغل هؤلاء في انفلاتهم؛ يغض الطرف آخرون، زعموا أنهم حماة الحرية، وناصبو نُصبِها.

ولنأخذ على سبيل المثال صنيع الدنمارك في السنوات الأخيرة؛ فقد أُطلقت يد الإعلام هناك للنيل من بعض شعائر الإسلام، ثم تطور الأمر فيما بعد إلى النيل من رسول البشرية ﷺ؛ عن طريق الرسوم المسيئة. وعلى الرغم من وجود أعداد كبيرة من المسلمين في الدنمارك، تمثل ديانتهم الديانة الثانية في تلك البلاد، من حيث تعداد السكان[1]، ومع أن شعوباً كاملة يسوؤها ويغضبها ويُذكي روحَ العداوة والبغضاء في نفوسها مثلُ هذا الصنيع؛ إلاّ أننا إذا استرجعنا المواقف التي خرجت من هناك، لا نكاد نجد لأدعياء الحقوق والحريات أثراً، اللهم إلا من انبرى منهم للدفاع عن حق الرسام في التعبير، متجاهلاً حق المسلمين في احترام ديانتهم!

ومن جهة أخرى: لم يعبأ الساسة والمتآمرون فيهم بمشاهد الأسى والأسف التي علت وجوه المسلمين، بل إن رئيس وزرائهم نفى أن يكون عنى الاعتذار عمَّا نشر بكلمة قالها مجاملة للجالية المسلمة هناك، فكأنهم لم يوقعوا بالأمس ويدعوا العالم للتوقيع على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان[2]، أو العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية

(١) من جملة ٥,٤ مليون نسمة هم عدد سكان الدنمارك، يوجد ١٨٠,٠٠٠ مسلم، يمثلون نسبة ٣,٣٣٪ من مجموع السكان، تليهم الجالية الكاثوليكية، التي يبلغ تعداد سكانها ٣٥,٠٠٠ نسمة، ثم شهود يهوه وتعدادهم ١٥,٠٠٠ نسمة. أما اليهود فعددهم ٧,٠٠٠ نسمة فقط، أما سواد الدنماركيين الأعظم فهم الإنجيليون اللوثريون، وتبلغ نسبتهم ٨٣,٢٪ من مجموع السكان، بيد أن نسبة الطائفة المواظبة منهم على خدمة الكنيسة المنضوية إليها تبلغ ٣٪ فقط.

وردت هذه الأرقام في تقرير الحريات الدينية الأمريكي لعام ٢٠٠٥م الجزء الخاص بالدنمارك، وعلى رابط وزارة الخارجية التالي، نسخة من الجزء المتعلق بالموضوع:

http://www.state.gov/g/drl/rls/irf/2005/51549.htm

(٢) اعتُمد بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ٢١٧ ألف (د - ٣)، المؤرخ في ١٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٨م.

والسياسية[1].

لقد جاء في الإعلان العالمي ما نصه: «تعهدت الدول الأعضاء - بالتعاون مع الأمم المتحدة - على ضمان اطراد مراعاة حقوق الإنسان والحريات الأساسية واحترامها»[2]، ثم قرر الإعلان - في غير موضع - أن الدين من الأمور التي تُكفل فيها الحرية؛ ومن ذلك نص المادة الثامنة عشرة: «لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين».

وجاء في العهد الدولي الخاص بالحقوق السياسية والمدنية ما نصه: «تحظر بالقانون أية دعوة إلى الكراهية - القومية أو العنصرية أو الدينية - تشكل تحريضاً على التمييز أو العداوة أو العنف»[3].

فبموجب العهد الدولي الخاص بالحقوق السياسية، فإن على الحكومة الدنماركية وغيرها أن تحظر بالقانون أية دعوة تثير الكراهية الدينية ضد المسلمين؛ وأيُّ شيء يثير الكراهية ضدهم أكثر من انتقاص الرجل الذي يتبعونه، ورميه بعظائم الأمور، وتصويره بأبشع الصور؟

(١) اعتمد وعرض للتوقيع والتصديق والانضمام، بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ٢٢٠٠ ألف (د - ٢١)، المؤرخ في ١٦ كانون الأول/ ديسمبر١٩٦٦ تاريخ بدء النفاذ: ٢٣ آذار/ مارس ١٩٧٦، وفقاً لأحكام المادة ٤٩.

(٢) تنظر ديباجة الإعلان، وعلى الرابط التالي من موقع الأمم المتحدة، نسخة عربية من نص الإعلان:

http: //www. un. org/arabic/aboutun/humanr. htm

(٣) المادة ٢٠ من العهد المذكور، وعلى عدة مواقع نسخة عربية، منها: موقع جامعة منيسوتا - مكتبة حقوق الإنسان على الرابط التالي:

http: //www1. umn. edu/humanrts/arab/b003. html

وكذلك الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان:

http: //www. hrinfo. org/docs/undocs/iccpr. shtml

بل إن على هذه الحكومة وغيرها أن تحظر بالقانون كل ما يشكل تحريضاً على العداوة؛ وأي شيء يستفز المسلم ويحرضه على العداوة، أكثر من انتقاص الرجل الذي لا يؤمن، حتى يكون أحب إليه من نفسه ووالده وولده والناس أجمعين، ﷺ؟

وبموجب نص الإعلان العالمي، فإن على حكومة الدنمارك أن تحترم الدين، الذي أفادت تقارير الأمم المتحدة نفسها أنه أكثر الأديان انتشاراً، والذي يمثل الديانة الثانية في الدنمارك من حيث عدد السكان؛ فهل من احترام الدين السخرية من نبي ملة تعظمه مليار نفس بشرية - بل أكثر - على وجه الكرة الأرضية اليوم ﷺ؟

ويأتي الرد من قِبَل من يزعمون الحرص على القوانين والتشريعات وقيم الحرية، بأن ما نُشر يندرج تحت عنوان «حرية التعبير»!

إن مفهوم احترام الأنبياء وعدم النيل من جنابهم، قانون دولي مقرر على وجه العموم، بل إن التعريض بمعتقدات أهل الأديان وبعض ما يعظمونه - مما لا يرقى إلى درجة الأنبياء - حُرْمتُه مقررة كذلك في قوانينهم الدولية، ولهذا نجد أن كثيراً من أهل الغرب لا يجرؤون على الكلام عن محرقة اليهود المضخمة - وبعضهم يقول: إنها مزعومة - بأي نقد أو مراجعة، ولو من باب حرية التعبير، بل من تكلم حوسب. ولكن عندما يكون الكلام عن الإسلام ونبيه ﷺ؛ فإنهم لا يلتفتون إلى ما تقرر في المواثيق الدولية؛ بحجة حرية التعبير.

إن هذا التناقض ليس ناشئاً عن غموض في القوانين، أو لبس في حدود مفهوم الحرية؛ بل هو أمر راجع في الدرجة الأولى إلى ما ورثه الغرب من عداء للإسلام وأهله من أيام الحروب الصليبية، وأما اللغط الذي يدور بشأن هذا المفهوم وحدوده، وهل ما قام به أصحاب الرسوم المسيئة داخل ضمن إطاره أم أنه تجاوزه؛ فما هو إلاّ صخب يستر

به كثيرون ما تُكِنُّ صدورهم من حقد على دين الإسلام ونبيه، عليه الصلاة والسلام.

إن لكل أمة من أمم الأرض معتقداتها ومقدساتها، التي يرفض أبناؤها أن تُمس أو تُنال بسوء؛ فإذا سألنا أبناء أي من هذه الأمم عن رأيهم في عدِّ السخرية والاستهزاء، أو التنقص والشتم لمعتقداتهم ومقدساتهم، حرية تعبير مأذوناً بها؛ لأجابوا جميعاً بأن هذا لا يمكن أن يكون كذلك بحال، بل هو سوء أدب، وتعدٍّ على الآخرين.

وعلى الرغم من هذا الاتفاق، إلا أن الإشكال يقع في التطبيق؛ فإذا طعن مسلم في تثليث النصارى، أو سخر من دعوى صلب المسيح، أو سَفَّه معتقد اليهود في التلمود؛ فلن يعُدّ المسلمون ذلك - من منطلق الرؤية الإسلامية - سخرية ولاتنقُّصاً، ولا سبّاً لمقدس له حق القداسة؛ بل إهانة لشيء من حقه أن يهان، ولكنهم قد يختلفون فيما بينهم: هل تقتضي المصلحة إظهار ذلك، أو يُنهى عنه؛ من باب قول الله - تعالى-: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨]؟ وهذا محل تفصيل ونظر واجتهاد.

وكذلك النصارى - وهم سواد الغرب الأعظم - واليهود؛ لا يرضون أن تُمس مقدساتهم باسم الحرية، أو يُسخر من بعض معتقداتهم الدينية، فضلاً عن أنبيائهم باسم الحرية، إلا أن كثيراً منهم لا يعتقدون أن الإسلام دين حق، أو أن نبينا ﷺ رسول كريم، فليست مقدساتنا مما يستوجب التقديس عندهم.

بل إنهم فيما بينهم يعتقد بعضُهم ضلالَ بعضٍ وفسادَ عقيدته، وقد مر معنا بعضُ مما يقوله اليهود في عيسى وأمه، عليهما السلام. وأما عند النصارى؛ فاليهود هم أعداء المسيح، الذين آذوه وأعانوا على صلبه وقتله. ولكن لأن مجتمعاتهم خليط من الأديان

وخليط من الفرق النصرانية المتنوعة؛ اقتضت المصلحة أن يعقدوا المواثيق الدولية الناصة على احترام الأديان؛ حفاظاً على سلامة المجتمع وأمنه، ولتجنيبه المرور بتجارب الماضي الأليم، المليء بمحاكم التفتيش، والحروب الطائفية والدينية الغربية الغربية.

فإذا تعارضت تلك المواثيق والقوانين المتعلقة باحترام المقدسات، مع القيم التي قامت عليها المجتمعات الغربية - كحرية التعبير -؛ وقع الانفصام في رَدَّة الفعل تجاه الحوادث بحسبها؛ فإن كانت تمس ما من أجله أنشئت تلك القوانين، لم يكن لحرية التعبير أن تتجاوزها، ولم يكن ليد الحرية أن تمتد لتهشم أنف المجتمع؛ إذ قيام مجتمعاتهم واستقرارها لا يكون إلاّ باحترام هذه القوانين.

وإذا كانت الحادثة لا تدخل ضمن ما أنشئت تلك القوانين من أجله، وإنما دخلت تبعاً، وليس ذلك المقدس المهان مما تهدد إهانته استقرار المجتمع الغربي؛ فعندها يكون لحرية التعبير مجال واسع؛ فقيم المجتمع مقدمة على المقدسات الوافدة التي ليست من مقدسات المجتمع في شيء، بل ربما كانت مما يناصبه هذا المجتمع العداء.

إذاً ليست المشكلة في إيجاد قوانين توجب احترام دين الإسلام؛ لأن القوانين الموجودة كفيلة بذلك؛ بنصها على احترام الأديان بوجه عام، لكن الإشكال هو في تفعيل هذه القوانين الموجودة في حق الإسلام كما هي مفعّلة في حق غيره، ولا سبيل لذلك إلاّ بأن يُثبت أهلُ الإسلام أنفسَهم ليظهر أثرُهم، بحيث يكون المساس بمقدساتهم مما يعرِّض مجتمعات الغرب لعدم الاستقرار؛ إما بإثارة حفيظة شريحة مهمة ومؤثرة فيها، أو بإثارة مشكلات مع العالم الإسلامي تضر بالغرب ومجتمعاته ضرراً شبيهاً بعدم استقرارها أو أشد، أو بغير ذلك مما يقره الإسلام.

وكما أن الطعونات الرعناء في الإسلام وفي نبي الإسلام ﷺ تفضح حقيقة صدق

بعض الدول الغربية، وتبين ما يعنيه التزامها بتلك القوانين المتعلقة بالحقوق المدنية والسياسية، أو حقوق الإنسان عموماً؛ فإنها كذلك تفضح المعيار المزدوج للدولة التي نصبت نفسها - بناء على ما جاء في التقرير السنوي الأمريكي، عن الحريات الدينية في العالم عام ٢٠٠٤م وغيره - مسؤولاً عن احترام الحريات الدينية في العالم أجمع، ومما جاء في هذا التقرير: «وتعترف الولايات المتحدة بمسؤوليتها الخاصة بالنسبة لاحترام تلك المعايير في الحفاظ على الحريّة الدينية وفي حمايتها»[١]، وهو ما أكده الرئيس جورج بوش عام ٢٠٠٥م؛ إذ نُقل عنه ما معناه: «على الرغم من تقدم الولايات المتحدة بسبب الحرية، فعلينا أن نتذكر أن الحرية ليست هدية أمريكا إلى العالم؛ لكنها هدية الله إلى كل رجل وامرأة في هذا العالم. هذه الحقيقة تقود جهودنا لمساعدة الناس؛ ليحرزوا حرية دينية في كل مكان»[٢].

إذاً، فهم يزعمون أنهم مبعوثون من قِبَل الله من أجل الحفاظ على الحريات الدينية وحمايتها؛ فما رصيد هذا الزعم من التطبيق العملي عندما يتعلق الأمر بالإسلام؟ وكيف كان موقفهم إزاء ما حصل في الدنمارك؟

لقد تزايدت الإساءة في الدنمارك لنبي الإسلام ﷺ ولدينه في السنوات الثلاث الأخيرة بصورة ملحوظة، وبالأخص بعد عرض فيلم الخضوع (Submission) في أواخر عام ٢٠٠٤م الذي أساء إلى الإسلام، وكان قد أثار موجة احتجاجات إسلامية

---

(١) عن التقرير السنوي عن الحرية الدينية في العالم لسنة ٢٠٠٤م.

(٢) عن السفير جون هانفورد، في تقرير وزارة الخارجية السنوي عن الحرية الدينية الدولية، الصادر عن الخارجية الأمريكية لعام ٢٠٠٥م. وعلى رابط وزارة الخارجية الأمريكية التالي، نسخة منه بالإنجليزية:

http://www.state.gov/r/pa/prs/ps/2005/56647.htm

أول ما عرض - في هولندا - أسفرت عن مقتل مخرجه «ثيو فان جوخ» (Theo Van Gogh) في أحد شوارع أمستردام في أول عام ٢٠٠٤م. كما أعطى نشر كتاب عن حياة «مارغريت الثانية» ملكة الدنمارك الحالية في أبريل/ نيسان من عام ٢٠٠٥م لهذه الحملة؛ بعداً جديداً؛ حيث كان مما قالته فيه: «يجب التصدي للإسلام، ويجب من حين لآخر أن نواجه مخاطر أن نوصف بأننا أقل مجاملة؛ لأن هناك بعض الأمور التي لا يمكن التسامح حيالها»[1]، ومع ذلك فقد جاء التقرير الأمريكي للحريات إذ ذاك مليئاً بالمفارقات، أو النفاق السياسي، على حد قول بعضهم:

= فقد أكد أن الدستور الدنماركي يعزز الحرية الدينية، ويحترم الحق الديني عموماً، وأنه لم يكن هناك تغير في مكانة احترام الحرية الدينية في أثناء المدة التي غطاها التقرير، وأن الحكومة واصلت سياستها في تعزيز حرية ممارسة الدين، لكن التقرير تغافل بالكلية عن سكوت الحكومة الدنماركية على حملات الطعن والتشهير بالإسلام ونبيه - عليه السلام -، بل عن تصريح الملكة بشأن التصدي للإسلام، وعدم التسامح في هذا الشأن.

= أشار التقرير إلى اشتراط الدستور الدنماركي أن يكون الملك الحاكم عُضواً في الكنيسة الإنجيلية اللوثرية، وأن هذه الكنيسة هي المجموعة الدينية الوحيدة التي يمكن أن تستلم الإعانات المالية أو الأموال الرسمية مباشرة؛ من خلال نظام الضرائب، وذكر أيضاً أن ١٢٪ تقريباً من دخل الكنيسة يجيء من الإعانات المالية الرسمية.

وعلى الرغم من هذا التمييز الصريح، المبني على أساس ديني طائفي؛ فقد امتدح التقريرُ الدنمارك، بينما أدرج دولاً كالسودان ضمن القائمة السوداء، مع أن دستوره لم

(١) موسوعة الدفاع عن رسول الله ﷺ، لعلي بن نايف الشحود، ١٢/ ٤١٤.

ينص على ما نص عليه دستور الدنمارك بشأن الحاكم، ولا أُثبتت في السودان حالات اضطهاد لأجل الدين، لنصارى أو وثنيين، ولا يُعرف نص في مواد أحكامه يأذن بدعم المسلمين على حساب غيرهم[1].

= لم ينسَ التقرير أن يشير إلى حالات مسجلة تحت ما يسمى بحوادث معاداة السامية، على الرغم من أن اليهود شرذمة لا يتعدى تعدادها السبعة آلاف نسمة في الدنمارك، وعلى الرغم من أن الحكومة الدنماركية قد حققت في بعضها وأدانت المسؤولين عنها بالفعل، بينما تجاهلَ الحملات ضد الإسلام - ثاني أكبر دين في البلاد من حيث عدد معتنقيه - في وسائل الإعلام المرئية والمقروءة، التي لم تحرك الحكومة ساكناً حيالها؛ بل إن التقرير يُعَرِّضُ - في معرض ذكر معاداة السامية - بالمسلمين المثيرين، مما يظهر الانحياز السافر والكيل بمكيالين.

= وبينما نص التقرير على أن حكومة السودان تضيّق باب بناء الكنائس وإحداثها؛ لم يشر إلى تضييق الدنماركيين على أصحاب ثاني أكبر ديانة عندهم، في بناء المساجد وإحداثها.

فالشاهد مما سبق هو بيان المفارقة بين المكاييل التي تكيل بها بعض الدول، وبين ما تزعمه من رعاية الحرية الدينية، وابتعاث الله لها من أجل صيانتها.

(١) ولعل القارئ الكريم يعلم أن ما ذكر هنا ليس في إطار المدح، ولكنه في سياق بيان المفارقة.

الوقفة الثانية عشرة

بيان صورة الإسلام في الغرب وأسبابها

....

إن من المهم بمكان - قبل الشروع في الكلام عن وسائل العلاج - أن يتعرف المجتمع المسلم على حقيقة صورة الإسلام كما تُعرض في الغرب؛ فإن هذا يساعد في فهم أبعاد المشكلة القائمة، مما يساعد في وضع الحلول الناجعة لها. والكلام في هذا الجانب مؤلف من جزأين: الأول: صورة الإسلام في الغرب، والثاني: أسباب تلك الصورة.

أما الجزء الأول؛ فسوف نتعرف على هذه الصورة من خلال مصدرين؛ أحدهما غربي والآخر مسلم.

أما الأول: فقد جاء في مقال للكاتب المعادي للإسلام دانييل بايبس ما نصه:

«يوماً بعد يوم، تتغيّر نظرة الأمريكيين إلى الإسلام والمسلمين، لتصبح أكثر سلبية. هذا ما جاء في استطلاعٍ مهمٍّ نشره مركز (بيو) للأبحاث في الأسبوع الماضي [عام ٢٠٠٣م]. وربما كان التطوّر الأكثر إثارةً في الاستطلاع، هو ازدياد عدد الأمريكيين الذين يجدون بأن الإسلام - على الأرجح - دينٌ يُشجّع أتباعه على العنف، أكثر من الأديان الأخرى.

ففي شهر مارس/ آذار من سنة ٢٠٠٢م، كان هناك ٢٥٪ من الذين استُطلِعت آراؤهم، يؤيدون هذه النظرة. أما الآن[1] فقد ارتفعت هذه النسبة إلى ٤٤٪.

هناك اتجاهات أخرى تتعلق بالإسلام، تتّسم بالسلبية أيضاً:

• فيما يتعلق بالمسلمين الأمريكيين: ٥٩٪ من الذين استُطلعت آراؤهم في نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠١م؛ كانوا ينظرون إلى المسلمين الأمريكيين نظرة إيجابية، هذه النسبة هبطت إلى ٥٤٪ في مارس/ آذار ٢٠٠٢م، وهي الآن بحدود ٥١٪.

• فيما يتعلّق بمرشح رئاسة الجمهورية: أظهرت الاستطلاعات أنّ نفور الأمريكيين من فكرة التصويت لمرشحٍ مسلمٍ لرئاسة الجمهورية، هو أعظم من نفورهم من فكرة التصويت لمرشحٍ ينتمي إلى أي دينٍ آخر. ٣١٪ من الأمريكيين يقولون: «لا» لمرشح مسلم، مقابل ٢٠٪ بالنسبة لمرشح مسيحي إنجيلي، و١٥٪ لمرشح كاثوليكي، و١٤٪ لمرشح يهودي.

• فيما يتعلق بالقيم المشتركة: جواباً على سؤال، فيما إذا كان «الدين الإسلامي ودينك يشتركان بأمور كثيرة متشابهة؟»، ٣١٪ من الردود كانت إيجابية في نوفمبر/ تشرين الأول ٢٠٠١م، ثم أصبحت ٢٧٪ في مارس/ آذار ٢٠٠٢م، بينما انحدرت في هذه السنة إلى ٢٢٪»[2] ا. هـ

هذا ما يتعلق بالمصدر الغربي، وما جاء فيه من أرقام يغني عن التعليق. أما ما يقوله المسلمون؛ فقد جاء في ملخص لكتاب الدكتور محمد بشاري (صورة الإسلام في

(١) ٢٠٠٣م، وقت عمل الاستطلاع.

(٢) المقال منشور على موقع يتبناه، وهذا رابطه معرباً:

http: //www. danielpipes. org/article/1199

الإعلام الغربي) ما يلي:

«في إطار تزايد موجة العداء للمسلمين في الإعلام الأوروبي، يشير المؤلف إلى مجموعة من القضايا التي تعكس هذا التوجه؛ ومن ذلك:

- ملف قضية الفتيات المحجبات؛ فتحتَ عنوان: «هل هو صراع حضاري أم ماذا؟»؛ تناولت مجلة دير شبيغل الألمانية القضية بهذا العنوان المستفز، وعدتها صراعاً يتفجر من جديد، متسائلة عمَّا إذا كان هذا الصراع يهدد المجتمع المسيحي أو العلماني؟

- أما في النمسا؛ فإن الدنيا قامت ولم تقعد عندما تزوجت السويسرية (لوسيا دحلب) من المواطن الجزائري علي دحلب، واعتنقت الإسلام وارتدت الحجاب؛ حيث انطلقت حملة إعلامية عنصرية ضدها في أثناء احتفال أقيم في المدرسة الابتدائية، التي تدرس فيها، وحضره الآباء وأولياء الأمور وبعض ممثلي أجهزة الإعلام المحلية.

- أما مجلة الإكسبرِس الفرنسية، فقد اختزلت موضوع الحجاب الإشكالي بعنوان: «الحجاب المؤامرة.. كيف يتسلل الإسلاميون؟»

ويحوي الموضوع مفردات تثير فزعاً واضحاً لدى القارئ الفرنسي؛ ومنها: «الأرخبيل الإسلامي»، «الجماعة الإسلامية المسلحة»، «تفشي الحجاب»، والذي راحت إحدى الكاتبات تصفه بأنه «عملية إرهابية»!

- أما بالنسبة لقضية المرأة، فبسبب تناول الإعلام الغربي غير المحايد لهذه القضية؛ أصبح تعدد الزوجات - المشروع في الإسلام، والممنوع في الدستور الفرنسي - أول ما يتبادر إلى ذهن الإعلامي الفرنسي عند تناول موضوع المرأة.

وفي مقال بمجلة الإكسبرِسْ مثلاً؛ نقرأ تنديداً شديداً موجهاً إلى القادة السياسيين؛ بسبب سماحهم بممارسات جاهلية قديمة، مثل: تعدد الزوجات، ختان البنات، الإسلام المتشدد، وحتى دروس تلقين اللغات الأصلية لأبناء الأقلية المسلمة والعربية.

ثم ينتقل الدكتور إلى جانب آخر، يتمثل في تشويه مفهوم الجهاد في الإعلام الغربي، ومن ذلك: تأكيد بعضهم أن الإسلام دين حرب، وأصبح يكفي أن يُشار في أي مقال لمصطلح الجهاد، مقروناً بترجمة فرنسية تعني «الحرب المقدسة»؛ لكي تثار الزوابع والهواجس والمخاوف.

ولا يتطلب الأمر أن يكون هناك حدث ذو دلالة لكي يُخوّف من الإسلام؛ إذ أصبح ينظر إلى كل ما يتعلق بالمسلمين على أنه مصدر للخوف والهلع، ومن ذلك على سبيل المثال: أن صحيفة «لُ نوفيل أوبزرفاتير» الفرنسية، نشرت مقالاً عمَّا وصفته بانفجار الحالة الإسلامية في فرنسا؛ حيث كان هناك في ذلك الوقت أكثر من ألف مسجد، وأكثر من ستمائة جمعية إسلامية، وهذا انفجار يعود إلى حوالي ١٧ سنة، يطرح مشكلاً فريداً على المجتمع الفرنسي. ويضيف صاحب المقال المذكور: «إن تكرار العمليات الإرهابية واختطاف الرهائن، يندرج ضمن استراتيجية مضادة للغرب؛ وذلك عبر تمرير خطاب الجهاد في معناه العدواني».

ويجول الدكتور في الإعلام البريطاني، ضمن جولته في الإعلام الأوروبي، فيشير إلى أن الصورة لا تختلف كثيراً عن طبيعة الصورة الموجودة في باقي الدول الأوروبية، التي تصف الإسلام بالدين البدائي والإرهابي، وأنه الدين الذي يتعارض مع الحضارة الغربية، وأنه العدو البديل عن الشيوعية وأيديولوجياتها، وبخاصة بعد سقوط الاتحاد السوفييتي.

- وفي ذلك السياق نشرت صحيفة «صنداي تايمز» مقالاً لكاتب يدعى (بيير جرين دورتون) بعنوان: «الوجه القبيح للإسلام»، قال فيه: إن الإسلام الذي كان حضارة عظيمة تستحق الحوار معها، قد انحط وأصبح عَدُوّاً بِدائياً، لا يستحق إلاّ الإخضاع.

- ويقدم المؤلف عرضاً لبعض العناوين التي تستصرخ داخل القارئ الفزعَ من الإسلام؛ مثل:

- المسلمون قادمون.

- الحروب الصليبية مستمرة.

- سيف الإسلام يعود من جديد.

- العالم يتحكم فيه بدو الصحراء وشيوخ النفط.

ولا زالت هذه الحملات الإعلامية تظهر بين الفينة والأخرى، مما يسهم بطبيعة الحال في تنميط صور مغلوطة تماماً عن الإسلام؛ بأنه دين للكراهية والتعصب والعنف.

ولعل أبلغ تعبير عن وضعية الإسلام في الإعلام والإدراك الغربيين: ظاهرة «الإسلاموفوبيا»، وهي الكلمة التي دخلت قاموس السياسة الأوروبية، وتحولت إلى مفردة لها معانٍ محددة في عصرنا، كما حصل في القرن التاسع عشر مع مفردة اللاسامية. وتحت مفردة «الإسلاموفوبيا» وهي كلمة يقصد بها «الرِهَابُ الإسلامي» بوصفة مصطلحاً يشير إلى حالة الهلع والخوف من الإسلام؛ بدأت تعقد المؤتمرات السياسية، وتدار الندوات الفكرية؛ لمعالجة مواضيع المخاوف من الإسلام، وأبعادها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

- ومن الصور التي يعرض لها المؤلف، وتشير إلى الظلم البريطاني للإسلام

والمسلمين: نشر وسائل الإعلام هناك مزاعم وادعاءات، ترمي من خلالها إلى بيان أن الثقافة الإسلامية مختلفة جملة وتفصيلاً عن الثقافات الأخرى، كذلك تتضمن هذه الصورة الثانية انتقاداً بريطانياً حاداً للنظام الاجتماعي في الإسلام، الذي يعتمد بشكل أساسي على الأب الذي ينسب الأبناء إليه من دون أمهم، ويتولى مسؤولية الأسرة كاملة، وغير ذلك.

وإذا كانت هذه هي الصورة فيما قبل أحداث سبتمبر/ أيلول؛ فلنا أن نتخيلها فيما بعد هذه الأحداث؛ فقد زاد معدل خضوع صورة الإسلام والمسلمين للتشويه والتحريف، وتعددت أصناف تشويه صورة الإسلام والمسلمين، ما بين التصريحات الأكاديمية والسياسية والإعلامية.

وإذا كانت الصورة التي ترسخها وسائل الإعلام مشوهة - بسبب سيطرة اللوبيات الإعلامية اليهودية عليها، أو بسبب وجود عقليات عنصرية متطرفة، استغلت أحداث سبتمبر/ أيلول، لكي تفرغ ذلك الحقد المكبوت؛ من أجل تفعيل تشويه صورة الإسلام- فقد كانت هذه الأحداث فرصة مواتية أيضاً لبعض السياسيين والدينيين الغربيين، لكي يمرروا خطاب العنصرية والاستعلاء.

فمن الدعوة إلى هدم الكعبة، إلى وصف الإسلام بأنه دين شيطاني جديد، على لسان القس البروتستانتي المعروف (فرانكلين غرام)، إلى (بيرلسكوني)[1]، الذي راح يؤكد أن الغرب عليه - وهو يضع استراتيجيته لقمع ما وصفه بالإرهاب - أن يثق أن حضارته أرقى من الحضارة الإسلامية.

- وتمتد المواقف، لتصل إلى الكاتبة والصحافية الإيطالية (أوريانا فالاتشي)، التي

---

(١) سياسي إيطالي كان يشغل منصب رئيس الوزراء في بلاده.

راحت تؤكد أن الغرب يعيش حرباً صليبية بالفعل؛ حرباً يسمونها «جهاداً»، حرباً لا تريد أن تغزو أراضينا بل أرواحنا، حرباً تريد القضاء على خيراتنا وعلى حضارتنا!

- أما رئيس تحرير مجلة لوبوان الفرنسية، فيقول في مقالة افتتاحية له بعد أحداث سبتمبر/ أيلول: «إنه من ضمن الملاحظات العديدة التي نخرج بها من هذا الحدث: أن أكثر الإرهاب المستشري في العالم اليوم يتعلق بالتطرف الإسلامي»، مضيفاً أن «الغرب يجهل القوة الصامتة للحركات الإسلامية وللمسلمين كافة؛ لأن هناك ملياراً منهم في العالم، وحتى لو كان هؤلاء المليار لا يساندون الإرهاب، فإنهم لا يعارضون الانخراط في أعمال الجهاد والحرب المقدسة».

- أما في بريطانيا، فقد نشرت جريدة الصنداي تليغراف مقالاً بعنوان: «هذه الحرب ليس موضوعها الإرهاب؛ بل الإسلام»!

- أما الصحافة الأمريكية فقد أثبتت دراسة بشأنها - حسبما يشير المؤلف - أنها بدأت في الهجوم المباشر على الدين الإسلامي؛ كونه ديناً يحض على العنف والانتقام، وكان هذا النمط من المعالجة الصحافية متوازياً مع الهجوم على المسلمين.

- كما لجأت الصحافة الأمريكية والبريطانية إلى تخصيص مساحات واسعة لشخصيات ذات تأثير في المجتمع؛ للإدلاء بشهاداتها المعادية للإسلام، والداعمة للأهداف التي كانت تعمل من أجلها في هذه المرحلة، وهو ما نراه مثلاً في أقوال (صاموئيل هنتنغتون) بأن المسلمين يشكلون ٢٠ ٪ من سكان العالم، وأنهم وحدهم مسؤولون عن ٨٠٪ من الصراعات والاضطرابات في عالم اليوم.

- أما في هولندا، فقد نشرت مجلة «هاخسابوت» في منتصف أكتوبر/ تشرين الأول مقالاً، دعا فيه كاتبه إلى مراجعة جذرية للوجود الإسلامي في هولندا، وإلغاء مدارس

المسلمين، مضيفاً: «إن الوقت حانَ للتأكد من إمكان التعايش مع الدين الإسلامي؛ بوصفه ديناً يحترم القيم الديمقراطية للدولة الغربية، والنظام الدستوري والقانون». . هذا بعض ما ذكره المؤلف.

أما التصريحات التي أعقبت أحداث ١١ سبتمبر / أيلول؛ فمشهورة، ومن أبرزها: تصريحات لأصحاب برامج مشهورة، يرددون مثل هذه العبارات، ومن هؤلاء:

- بِني هن (Benny Hinn) الذي يقول: «هذه ليست حرباً بين العرب واليهود، إنها حرب بين الله والشيطان».

- وتقول آن كولتر (Ann Coulter) في مقابلة أجرتها على قناة NBC عقِب أحداث سبتمبر/ أيلول: «يجب علينا أن نجتاح بلدانهم، ونقتل قادتهم، ونحولهم إلى نصارى»!

ولعل العرض السابق كافٍ في بيان الجانب الأول المتعلق بصورة الإسلام لدى الغرب.

أما الجزء الثاني: (وهو أسباب تلك الصورة) فقد كتب علاء بيومي - مدير الشؤون العربية في منظمة «كير» - مقالاً جديّاً، يوضح فيه أسس تلك الأسباب لا سيما الخارجية منها، أي: ما ليس للمسلمين يد فيه، فقال:

«يوضح ديفيد بلانكس ومايكل فراستو، في مقدمة كتاب قاما بتحريره (١٩٩٩م) عن «رؤية الغرب للإسلام في العصور الوسطى»؛ أن جذور رؤية الغرب الراهنة للإسلام والمسلمين تعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي، الذي شهد بداية الحروب الصليبية، والمراحل الأولى لنشأة الهوية الغربية الحديثة.

ويقول الكاتبان: إن الأوروبيين في ذلك الوقت كانوا محاصرين بحضارة أكثر قوة وتقدماً؛ هي حضارة الإسلام، وأنهم فشلوا في هزيمة هذه الحضارة خلال الحروب الصليبية، كما رفضوا فهمها، فبقي لديهم شعور دائم بتهديدها الحضاري والديني لهم. لذا؛ لعب الإسلام دوراً أساسياً في تشكيل الهوية الأوروبية، ومن ثم الغربية الحديثة.

ويرى المؤلفان أن الإسلام لعب دوراً شَبَّهاهُ بـ (نيجاتيف الصورة) في تشكيل رؤية الأوروبي المسيحي المثالية لنفسه؛ إذ عمد الأوروبيون إلى تشويه صورة منافسيهم المسلمين، بوصفه أسلوباً لتقوية صورتهم الذاتية عن أنفسهم، وبناء ثقتهم في مواجهة عدو أكثر قوة وتحضراً.

وفي الكتاب نفسه: يرى دانييل فيتكس (وهو أستاذ آداب في جامعة ولاية فلوريدا الأمريكية) أن نظرة الغرب الحديثة للإسلام؛ وُلِدت في وقت كانت علاقة أوروبا بالإسلام فيه علاقة خوف وقلق، مما دفع الأوروبيين لتعريف الإسلام تعريفاً «ضيقاً كاريكاتورياً»، على أنه دين يملؤه «العنف والشهوة»، يقوم على «الجهاد العنيف» في الحياة الدنيا، و «الملذات الحسية الموعودة» في الآخرة، كما نظروا للرسول محمد ﷺ - على أحسن تقدير - على أنه واحد من اثنين: إما قس كاثوليكي فشل في الترقي في سلم البابوية، فقرر الثورة ضد المسيحية، أو أنه راعي جمال فقير، تلقى تعليمه على يد راهب سوري[1]؛ ليشكل ديناً جديداً من قشور العقيدتين المسيحية واليهودية.

كما نظر الأوروبيون إلى حياة المسلمين الأخلاقية نظرة مزدوجة؛ فمن ناحية:

---

(١) يعنون به الراهب بَحيرا، وقصته مشهورة في كتب السيرة، التي تذكر أن النبي ﷺ كان في الثانية عشرة من عمره يوم لقيه لمرة واحدة لم تتكرر!

نظروا إلى حجاب المرأة المسلمة تعبيراً عن «السرية والقهر»، والفصل بين الرجل والمرأة، ومن ناحية أخرى: نظروا إليه على أنه مصدر «فجور واستباحة أخلاقية مستترة» خلف الحواجز والأسوار.

وقد انتقلت هذه الصورة المشوهة - كما يرى جون إسبزيتو، أستاذ دراسات الأديان والعلاقات الدولية في جامعة جورج تاون الأمريكية - في كتاب (التهديد الإسلامي: حقيقة أم أسطورة؟) (١٩٩٢م) إلى بعض أهم قادة الإصلاح الفكري والديني في أوروبا، وعلى رأسهم مارتن لوثر - زعيم حركة الإصلاح البروتستانتي - الذي نظر للإسلام على أنه «حركة عنيفة، تخدم أعداء المسيح، لا يمكن جلبها للمسيحية؛ لأنها مغلقة أمام المنطق، ولكن يمكن فقط مقاومتها بالسيف».

ومع دخول عصر النهضة الأوروبية في القرن الخامس عشر؛ دخلت نظرة الغرب للإسلام مرحلة جديدة، وصلت إلى قمتها خلال عصور الاستعمار الأوروبي، الذي اجتاح شرق العالم القديم خلال القرن التاسع عشر الميلادي.

ويرى إدوارد سعيد في سلسلة من مؤلفاته - وعلى رأسها الاستشراق (١٩٧٨)- أن تعرُّف الغرب على الإسلام في هذه المرحلة، كان بغرض السيطرة عليه وليس فهمه، وأن عملية المعرفة هذه تمت بشكل منظم نسبياً، تعاونت فيه مؤسسات الفكر والمعرفة الأوروبية تعاوناً وثيقاً مع مؤسسات الاستعمار الأوروبية الرسمية؛ لمدها بالمعرفة اللازمة للسيطرة على المجتمعات المستعمَرة.

وخلال هذه المرحلة، شوَّه الغرب صورة الشرق - بما في ذلك العالم الإسلامي - بأسلوب أصبح الآن نموذجاً يدرّس عن التشويه المتعمد، الذي يمكن أن تقوم به حضارة ما لصورة حضارة أخرى. ومن أهم عناصر هذا الأسلوب، ما يلي:

أولاً: النظر للشرقي أو للمسلم على أنه الآخر المستقل تماماً عن الأنا أو الذات الأوروبية.

ثانياً: تنظيم علاقة الأوروبي مع الآخر؛ من خلال سلسلة من الثنائيات الفكرية، يضع كل منها الآخر (الشرقي أو المسلم) في مقابل الأنا الأوروبية على طرفي نقيض، في مختلف جوانب الحياة؛ فعلى سبيل المثال: صُوِّر الشرقي على أنه متخلف وحشي في مقابل الغربي المتقدم المتحضر، وجاهل فقير في مقابل الغربي المتعلم الثري، وداكن اللون ضعيف الجسم في مقابل الغربي الأبيض القوي.

ثالثاً: وقفت المؤسسات الاستعمارية خلف التقسيم الثنائي السابق؛ لدعمه سياسياً واقتصادياً وثقافياً على أرض الواقع؛ من خلال مساعيها لربط الشرق - بما في ذلك العالم الإسلامي - بأوروبا، عبر روابط مؤسساتية استعمارية، تضمن بقاء الشرق الطرفَ الأضعف على طول الخط في علاقته بالإمبراطوريات الأوروبية. ولهذا؛ سعى الاستعمار لتكريس استغلاله واستنزافه الاقتصادي للشرق، ولإضعاف اللغات والأديان والثقافات الشرقية الأصلية، ولمحاربة ظهور الحركات السياسية والاجتماعية الوطنية في الشرق والعالم الإسلامي، على مدار عقود الاستعمار.

رابعاً: وقف الغرب موقفاً منزعجاً ومتشدداً - وأحياناً انتقاميّاً - تجاه الجماعات الشرقية أو المسلمة، التي خرجت عن التقسيم الثنائي السابق، وحاولت امتلاك أدوات القوة الغربية؛ مثل: اللغة، وقوة الاقتصاد، وفهم السياسة، والقانون، وأساليب العمل الإعلامي، للتقريب بين مواقف المجتمعات الشرقية المستضعَفة والغرب المستعمِر.

خامساً: لعبت النظرة السابقة دوراً مزدوجاً خطيراً في تشكيل صورة الإسلام

والمسلمين لدى الغرب، الدور الأول: هو تشويه هذه الصورة، والثاني: هو تبرير الاستعمار الأوروبي واستنزاف أوروبا المنظم لثروات الشرق والعالم الإسلامي، تحت عنوان تحريره ومساعدته على الرقي والتحضر» ا. هـ.

وهذا تحليل جيد لما يتعلق بالأسباب الخارجية، مستندُه كتابات الغربيين أنفسهم، وهذه الأسباب لا ترتبط بتلك الحقبة من التاريخ فحسب؛ بل إن الكثير منها لا يزال قائماً في واقعنا المعاصر، هذا الواقع الذي يشهد حملة تشويه مستمرة، قد تكون أخطر وأوسع انتشاراً من تلك التي كانت في عصر المد الاستعماري.

ويؤكد المفكر النصراني المعروف المستشار إدوار غالي الدهبي، أن هذا التشويه الذي يقوم به الغرب، ليس نابعاً عن فكر أو قراءة موضوعية لسيرة نبي الإسلام ﷺ؛ وإنما هو تشويه متعمد لا يصدر إلا عن أحد نوعين من الناس: إما جاهل، وإما حاقد مأجور يعمل لحساب النفوذ الصهيوني، الذي يهمه أن يشوه الديانات السماوية، وخصوصاً الدين الإسلامي ورسوله ﷺ وأتباعه، وعلى هذا فهو ردة فعل طبيعية لإفلاس الحجة وفقد المنطق.

وقد أصاب فيما قال؛ فلا شك أن اللجوء إلى هذا الأسلوب يدل على أن القوم قد أعيتهم الحيلة، وشعروا بالهزيمة المعنوية الممهدة للهزيمة الحسية، فأخرجوا آخر ما في كِنانتهم من سهام.

وقد دأب أعداء الرسل منذ القديم - إذا أعيتهم حجة الإسلام البالغة، ودمغتهم محجّته الواضحة - في حيدة واضحة؛ ليخرجوا القضية من الحوار عن ذلك التشريع الرباني والهدي الإلهي، الذي جاءتهم به الرسلُ من عند الله، إلى قضية أخرى يعتمدون فيها على نقل المعركة من ميدانها الصحيح إلى ميدان لا يجاريهم فيه الشرفاء؛

فينتقصون مَنْ جاءهم بالحق من عند الله، ويرمونه بالمثالب والمعايب، فِعَل العاجز عن مقارعة الحجة بالحجة، المائل لصرف الناس عن الحق والهدى بتطوير الخصومة عن طريق استفزاز أصحاب الحق.

أما المفكر العبري الملحد يوري أفنيري؛ فيحسم الأمر في رده على ما فاه به كبير الكاثوليك بنديكت السادس عشر، من كون الإسلام نُشِر بالسيف، فيقول: «هي أسطورة موجهة، جزء من الأساطير التي نشأت في أوروبا أيام الحروب الكبيرة ضد المسلمين، إعادة احتلال إسبانيا من قِبَل المسيحيين، الحروب الصليبية وملاحقة الأتراك، الذين كادوا يحتلون فيينا».

... لماذا صرح بهذه التصريحات علناً؟ ولماذا الآن بالذات؟

لا مناص من النظر إلى الأمور على خلفية الحملة الصليبية الجديدة، التي يخوضها بوش ومؤيدوه الإنجيليون؛ وحديثه عن «الفاشية الإسلامية»، و«الحرب العالمية ضد الإرهاب»، بينما توجّه كلمة «الإرهاب» إلى المسلمين»[1]. هذا ما يتعلق بالأسباب الخارجية.

أما الأسباب الداخلية؛ فترجع إلى عرض صورة لمسخ مشوه والتصريح بأنها صورة الإسلام، أو الإيهام بذلك عمداً أو خطأً. وهذا يشمل أموراً عديدة؛ منها:

- الممارسات التي يعتقد بعض الجهلة أو المتحمسين أو المنهزمين أنها من الإسلام، والإسلام منها براء؛ مثال الأول: ما يحصل في الموالد والحضرات، وحلقات الزار وما

(١) من مقال له بعنوان: (سيف محمد) نشر في ٢٣/ ٩/ ٢٠٠٦م على الموقع التالي:
http: //www.avnery - news.co.il /english /index.html

أشبهها، ومثـال الثانـي: التغيير غير المنضبط للمنكر باليـد، مما ينجم عنه منكر أكبر منه؛ كالافتئات على السلطان، أو إزهاق الأنفس المحترمة، وكذلك أحداث التفجير التي يروح ضحيتها الأبرياء بلا عذر شرعي، ومثال الأخير: الفتاوى المميِّعة للكثير من حقائق الدين، أو رد بعضهم على الشبهات بردود سمجة باردة، هي إلى مراعاة ذوق الغرب أقرب منها إلى طلب رضا الرب.

- ومنها ما يزوِّره العلمانيون - وأضرابهم من دعاة التنوير - بإحراق الفضائل، وتمييع الثوابت، وخلع كل ما هو قديم لمجرد كونه قديماً، وإن كان فيه الفلاح والنجاح، ثم الزعم - جهلاً أو كذباً - أن الإسلام لا يعارض ما يعرضون، وأن معارضتَه تشدُّد وتزمت، وهو ما يؤدي إلى أمرين سلبيين: **الأول**: عرض صورة خاطئة عن الإسلام، **والثاني**: التنفير من الإسلام الحقيقي.

- ومنها ما يُعرض في وسائل الإعلام المسلمة، أو ينتشر في واقعهم من تعاملات مشينة أو ممارسات تخالف هدي الإسلام؛ بغير نكير في أحيان، وبنكير لا يكاد يُذكر في أحايين أخرى، مما يوهم الغربيين أن تلك الصورة المشوهة هي الإسلام.

فلعل ما سبق من أسباب داخلية وخارجية، يمثل أهم الأسباب التي قادت إلى تشوه صورة الإسلام لدى الغرب.

ولا يفوتنا في خضم عرض الأسباب، أن نؤكد عاملاً مهماً، بل هو أهم العوامل التي تدفع لتشويه صورة الإسلام في الغرب؛ وهو ما بينه لنا ربنا - عز وجل - بقوله: **﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾** [البقرة: ١٢٠]؛ إذ لو كان

هناك عدل وإنصاف؛ لم يؤاخذ الإسلام بأخطاء أبنائه المتسبين إليه، ولا المسلمون جميعاً بأخطاء وتجاوزات - يوجد مثلها، بل أضعافها في كل الشعوب وأتباع كل الأديان - لمجرد وقوع بعض الأفراد أو الجماعات - المنتمية إليه - فيها.

الوقفة الثالثة عشرة
دور الأمة المحمدية

....

إن هذه الأمة لا يليق بها أن تكون تبعاً لغيرها من الأمم؛ فهي أمة قد اصطفاها الله - عز وجل - على سائر الأمم، فقال - عز من قائل -: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. ولخيريتها، ولسيرها على طريق الحق والعدل؛ جعلها الله - سبحانه وتعالى - شهيدة على من سواها من الأمم، كما قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقد ذكر الله - تعالى - الصفات المؤهلة للقيادة والريادة. ومتى اجتمعت تلك الصفات في الأمة؛ تبوأت بإذن ربها مكانتها، وجماعُها: تحقيق الإيمان، والدعوة إليه بالأمر بكل معروف وأعلاه التوحيد، والنهي عن كل منكر وأعلاه الشرك، ولذلك طرق متنوعة؛ فتارة يكون باليد واللسان، وتارة يكون بالسيف والسنان، وتارة يكون بالرفق والتلطف في التدبير، وقد يكون بغير ذلك.

وليست مقارعة أعداء الأمة ومنابذتهم منحصرة في ساحات الوغى وحدها، ولا هي في المقابل قاصرة على ميدان إقامة الحجة ورد الأباطيل وحده؛ بل الأمر كما قال الله - سبحانه -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣] و [التحريم: ٩]، قال ابن كثير - رحمه الله -: «قال

ابن عباس: أمره الله - تعالى - بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم. وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف، واغلظ على المنافقين بالكلام، وهو مجاهدتهم. وعن مقاتل، والربيع مثله. وقال الحسن وقتادة: مجاهدتهم: إقامة الحدود عليهم. وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال؛ لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا بحسب الأحوال، والله أعلم»[1].

وقد بين ﷺ هذا الأمر أحسن بيان، كما في حديث أنس: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»[2]، وتارة يكون الذود بالكلمة أوقع من الرمي بالنبال، كما قال ﷺ عن شعر ابن رواحة، الذي هجا به الكفار: «فوالذي نفسي بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النَّبْل»[3].

وهكذا نصرة دين الله، تكون بالمعنى الواسع للجهاد.

وقد قال علماؤنا في مثل قول الله - تعالى -: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقوله عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]: «نصْرُ اللهِ عبدَه: معونته إياه، ونصرُ العبدِ ربَّه: جهاده في سبيله؛ لتكون كلمته العليا»[4]، غير أنه ينبغي ألا يكون نصر العبد ربه قاصراً على الجهاد بالأبدان؛ لأن

(١) تفسير ابن كثير، ٧/ ٢٣٧.

(٢) مستدرك الحاكم ٢/ ٩١ (٢٤٢٧)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، ورواه ابن حبان في صحيحه ١١/ ٦ (٤٧٠٨) بلفظ: (بأيديكم وألسنتكم)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) صحيح ابن خزيمة، ٤/ ١٩٩ (٢٦٨٠)، قال الألباني: سنده صحيح على شرط مسلم، طبعة المكتب الإسلامي (١٤٠٠).

(٤) تفسير الطبري، ١٦/ ٥٨٧.

مفهوم الجهاد أوسع من ذلك بكثير، كما بين عليه السلام.

إن الأمة كلها مدعوّة لنصرة الله ببذل المال والنفس واللسان؛ لتكون كلمة الله هي العليا. الأمة كلها مدعوّة للعمل الدؤوب الجاد؛ حتى تعود سيرتها الأولى؛ فالجندي بقتاله الأعداء، والعالِم بعلمه، والكاتب بكلمته، والطبيب بطبه، والمهندس بهندسته، والتاجر بتجارته، والمُزارع بزراعته، والعامل بعمله، وكل فرد في موقعه، الجميع مدعو لنصرة دين الله، فبهذا تظهر الأمة ويقوم صرح عزها.

بل الأمم جمعاء لا تقوم قائمتها إلاّ بتضافر الجهود على نهضتها.

وحتى تنهض أمة الإسلام؛ لا بد من أن تأخذ بأسباب النهضة، ومما ينبغي التنبيه إليه: أنه لم تكن نهضة لأمة من الأمم بوزارة دفاع فقط، ولن تكون، وإن انتسب إليها مليون استشهادي. وهذا لا يعني التقليل من أهمية الجهاد ومواجهة العدو الصائل المعتدي أبداً؛ فقد دل على مشروعية المدافعة المنضبطة الشرعُ والعقل السليم، وقد رأينا أثرها في نزف دول كبرى، والحد من توسعها وتعطيل مشروعاتها التي كانت تصبو إليها. وإنما القصد بيان طريق النهضة، وأنها لا بد من أن تكون في شتى الجوانب؛ سياسية وعسكرية واقتصادية وإعلامية واجتماعية ودينية، وكثير من الناس - بل كل الناس - يملك أن يقدم في هذه الجوانب شيئاً ينفع به أمته، ويرفع به دولة الإسلام. وفي المقابل قد يعجز كثير من الناس عن ميادين الجهاد؛ إما لأمر قام فيه، أو في بلده، أو في البلد الذي يريد الجهاد فيه.

ولا يحسن أن يترك المرء ما في وسعه ليجازف بما ليس في يده ولا طاقته، ولا سيما إذا كان الذي في يده أعظم أثراً، وأكثر نفعاً.

إن تأكيد أهمية الأخذ بأسباب النهضة المختلفة لازم، وألزم منه وأوجب: تأكيد

أنه لا معنى لنهضة الأمة بغير الدين، بل إن النهضة مع التفلت من ضوابط الشريعة قد تكون وبالاً على الأمة، كما كانت وبالاً على دول الشرق والغرب، التي لا تعرف رباً ولا ديناً صحيحاً.

نعم، قد تكون للأمة نهضة وإن تجردت عن قيم الشريعة فلم ترفع بها رأساً، ولم ترَ في نبذها بأساً؛ إن هي أخذت بأسبابها المادية، ولكنها نهضة مسخ حضاري، لا نهضة حضارة إسلامية، نهضة لا فرق عندنا بينها وبين نهضة الدول الغربية أو الشرقية، التي لا تنتمي إلينا، ولا نتشرف بالانتماء إليها؛ بل نحمد الله الذي عافانا.

ولذا؛ فإن النهضة التي ندعو إليها على كافة الأصعدة: نهضة شرعية دينية بالدرجة الأولى، تحكم نهضةً في كافات مجالات الحياة وأسباب القوة؛ فلا انفصال للدين عن حياة أمة الإسلام، ولا حياة للأمة تُرضَى بغير الدين.

والدين الحق - إن هو تحقق في النفوس - قاد إلى نهضة شاملة كبرى ولا بد، فإذا التزم الناس أحكام الشريعة قاموا بما يجب عليهم من فروض الكفايات، وأعدوا ما استطاعوا من أمر لا يتم الواجب إلاّ به، وهذا يشمل كثيراً من شؤون الحياة، بل يشمل القيام بها على أتم الأوجه وأكملها؛ إذ لا بد -وفقاً لمقاييس الشرع - أن يكون العامل قويّاً أميناً، والعمل محسناً متقناً، والمشروع نافعاً بناء، وهذا يثمر بدوره أمة جادة منتجة، تعرف غايتها الكبرى التي خُلقت لها، وتسعى بكل جد إلى بلوغها، فحري بمثلها أن تسود وترود.

فإن قيل: هذا قد يكون ممكناً في ظل وضع مثالي ليس فيه عدو متغلب. أما والحال ما ترى من كيد أعداء الإسلام، وقعودهم بكل طريق نهضة يتربصون ويصدون؛ فلا يبدو أن ثمة سبيلاً للنهضة؛ فكيف يزعم أن الدين الحق إن هو تحقق قاد إليها ولا بد؟!

بل قد يقود إن كانت الظروف مواتية.

فيقال: إن الله تكفل بنصرة من نصروا الدين، وإن لم يتمكنوا تمكُّن أعدائهم من الأسباب المادية؛ إن هم بذلوا ما استطاعوا من قوة في سبيل تحصيلها. ومن تأمل تاريخ الإسلام، بل تواريخ أمم الرسالات الربانية؛ وجد صدق ذلك؛ فكم خُرقت العادة للمسلمين، فأظهر الله فئة قليلة منهم على فئة كثيرة من المشركين، تفوقهم عدداً وعتاداً، وتلك سنة قديمة. قال الله - تعالى -: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، فتأمل قولهم: (كم من فئة) الدال على الكثرة، ولا تغفل عن تاريخ هذا القول؛ فقد قيل ونبي الله داود - عليه السلام - لا يزال في عداد جند طالوت؛ فمن قبل ما يزيد على ثلاثة آلاف عام بنحو نصف القرن، والحوادث المثبتة لهذا كثيرة، بشهادة المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم، مع أنه إن لم تكن في تواريخ الأمم سوابق كثيرة، ففي تاريخنا ما يكفي لاعتبار أولي البصائر والأبصار، ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

فالنصر من عند الله، يؤيد به من يشاء. وفيمن شاء نصرَهم وتأييدهم عباده المؤمنين، ما استقاموا على أمره، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، ﴿يَا

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد : ٧]، وتأمل حال المسلمين يوم الخندق لما بذلوا غاية وسعهم، والتزموا أمر ربهم، والعرب قد رمتهم عن قوس واحدة بجيش الأحزاب العرمرم، واليهود قد نقضوا العهد وطعنوا في الظهر، فجاءتهم الجنود من فوقهم، ومن أسفل منهم، ومع ذلك قال الله - تعالى -: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٢٢]، فتأمل ضيق المقام الذي هم فيه، وراسخ الإيمان الذي هم عليه بوعد الله القاضي بنصرهم، فكان عاقبة ذلك أن منَّ الله عليهم بما شاء من المنن. قال الله - تعالى -: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب : ٢٣ - ٢٧].

ولعل لا بد من تحقق أمرين لكي يتحقق هذا الوعد الرباني بالنصر يقيناً؛ فإن تحققا فلن يتخلف نصر الله عمن حققهما:

أما الأول: فالاستقامة على الدين قدر الطاقة.

والثاني: إعداد أسباب النصر التي أمر الله بالأخذ بها قدر الطاقة، من دون تعجلٍ

من قِبَلنا لمواجهة لم نتمكن من أسباب النصر فيها، كما صنع نبينا ﷺ في مكة قبل فرض القتال، وفي المدينة بعد فرض القتال؛ إذ لم يتوجه ﷺ تلقاء مكة فاتحاً إلاّ بعد مضي عشرة أعوام، وبعد أن أثمر صلح الحديبية، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، مع أن أشرف البقاع - بيتَ الله الحرام وما جاوره من المشاعر - كانت ترزح تحت وطأة الكفر وعباد الأحجار.

فإن تحقق هذا وهذا، فلن يتخلف نصر الله، وكذلك لن يتخلف - إن شاء الله - عنا إن بذلنا وسْعنا، وقبل بلوغ التمام دفعنا اضطراراً لمعركة لم نحدد مكانها ولا زمانها، وإن لم يكن إعدادنا لها مثل إعداد أعداء الله لها، كما حصل لصدر هذه الأمة في مواطن كثيرة.

ولعل هذا المعنى مما لأجله أقسم شيخ الإسلام ابن تيمية على انتصار جيش الإسلام في وقعة شقحب، فلما قيل له: (قل: إن شاء الله!) قال: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً.

وما سبق يبين أهمية الأخذ بالأسباب، وهذا يحتم علينا الاستفادة من تجارب الأمم التي حققت الريادة بتفوقها الاقتصادي في عالم الصناعة والمال والتجارة وغيرها.

فكل هذه من أسباب التفوق والظهور، ولكنها لا يمكن أن تكون - مجردةً - وسيلة تمكين صحيحة لهذه الأمة ما لم تخضع هي في نفسها للشريعة، قبل أن تستعمل في بسط سلطان الشريعة. أما إن جردت عن الضوابط الشرعية؛ فقد تُمكَّن، ولكن لن يكون تمكينها لأمة محمد ﷺ ومنهاجه وشريعته -كما مضت الإشارة - بل لمنهاج آخر وشريعة أخرى، وأمة ممسوخة الهوية؛ فهل على إسلامي أن يسعى لذلك؟

نعم يظل فرق يسير؛ وهو أن صفيق الدين خير من عديمه؛ فقد يرعى الأول لله

حرمة ويعرف له حدوداً، لا يرعاها ولا يعرفها الثاني، وبعض الشر العظيم قد يكون أهون من بعض، وعندها فلا يحمد أن يذهب إليه عاقل إلاّ اضطراراً.

الوقفة الرابعة عشرة

طليعة التمكين

....

إن السعي إلى تمكين هذه الأمة في الأرض مهمة عظيمة. وعلى الرغم من أن الأمة كلها مدعوة للإسهام في أداء هذه المهمة؛ إلاّ أنه - كما في كل دعوة نهضة وإصلاح - لا بد من طليعة رائدة؛ تتقدم الصفوف، وترسم لمن خلفها معالم طريق الخلاص.

وقد حاولت العديد من الحركات الإصلاحية القائمة في واقع المسلمين اليوم القيامَ بهذا الدور، إلا أن كثيراً منها ظنت أن طريق الإصلاح إنما يكون بمنافسة أعداء الله في كل مجال تفوقوا علينا فيه، بغير قيود ولا ضوابط، ولهذا رأى كثير منهم أن وسائل ريادة أعداء الله في عالم اليوم هي وسائل الريادة التي ينبغي لنا أن نُعْمِلَها؛ فمن قائل يقول: إن الديمقراطية والمشاركة السياسية للشعوب في صنع قرارها عبر الانتخابات؛ قد مكنتها من تحقيق أهدافها في الازدهار والتقدم؛ فيجب أن نجعل العمل السياسي والحل الديمقراطي هو شغلنا الشاغل؛ كي نصل إلى التمكين عبر صناديق الاقتراع. وآخر يدعو إلى نظام ثيوقراطي[1]، يريد أن يكون على رأسه، وآخر لا يرى حلاً يناسب (قطعان الشعوب) غير النظام الديكتاتوري القمعي، وثالث يرى أن لا نجاة للأمة

(١) أي: ديني. والمقصود ما كان على شاكلة النظم الوثنية والكنسية، التي يكون لرأسها سلطة مطلقة ولا يملك أحد أن يسأله عمَّا يفعل.

إلاّ بإبادة خضرائها؛ كونها نتيجة عادية لمقارعة الطواغيت وجند الطواغيت وأذناب الطواغيت. . وما أطول أذنابهم عند بعض هؤلاء! فإنها تمتد إلى قطاعات عريضة من المجتمع المسلم، بزعمهم وتخيلاتهم.

وسبيل التمكين المرضي لا تكون بإقرار نظم لا تقرها الشريعة. وهذا ما تثبته سيرة النبي - عليه السلام - ويثبته تاريخ المسلمين، بل تثبته كذلك بعض تجارب الواقع المعاصر.

يُروى في كتب السيرة وكتب التفسير: أن الكفار في مكة المكرمة عرضوا على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يكون ملِكاً عليهم؛ على أن يترك دعوته، فأبى وقال: «ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالَكم، ولا الشرفَ فيكم، ولا الـمُلكَ عليكم؛ ولكن بعثني الله إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم؛ فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم»[1].

ولقائل أن يقول: قد كان بإمكانه - عليه السلام - أن يصبح حاكماً عليهم، ثم بعد توطيد أركان حكمه يفعل ما يشاء! وهذا نوع من أنواع العمل السياسي، قد يراه مناسباً من سوّل له الشيطان أن الإصلاح يتحقق باعتلائه سدَّة الحكم بأي طريق، وفوق أي نظام طاغوتي، ولكن دلّ تركُه - عليه السلام - ودل إقرار الله - عز وجل - له على تركه؛ أن الملك المجرد ليس هو الطريق لتحقيق التمكين المنشود. وما أعظم الفرق بين التمكين للدين، والتمكين للنفس بدعوى إقامة الدين!

وهنا دعوة تختلط بهذه الرؤية؛ ألا وهي دعوى تخفيف الضرر وتقليل المفسدة، ولا شك أن من القواعد المقررة: مجيء الشريعة بما يخفف الضرر أو يزيله، بيد أن

(١) تفسير ابن كثير لسورة الإسراء ٩/ ٧٨، والسيرة النبوية لابن هشام، ١/ ٢٩٥ - ٢٩٦، وغيرهما.

ثمة فرقاً بين من يقتحم نظاماً فاسداً وهو يعلم فساده ويقرر عواره؛ بقصد إزالة الخبث أو الحد منه، فهو يطمح إلى تغييره، أو على الأقل إصلاح مقرراته؛ (فهو يعلم أن الديمقراطية - مثلاً - نظام باطل، لكنه يسعى من خلال اقتحامه - ببعض الضوابط - إلى تخفيف مفسدته)؛ وبين من يقرر مثلاً أن الديمقراطية نظام يجيء على قواعد الإسلام ويستقيم مع شرائعه. ومثل هذا، إن لم يكن مغرضاً كائداً للدين، فهو أحد رجلين: إما جاهل بالشرع والدين جهلاً بسيطاً أو مركباً قاده إلى الافتراء عليه، وإما جاهل بحقيقة الديمقراطية، يضع لها من التعاريف والآليات ما لا وجود له على سطح الكرة الأرضية إلاّ في مخيلته، مَثَله كمثل الذي يقول للعامة: إن المعازف فيها تفصيل؛ فما كان منها كصوت العصافير فمعازف ليست بحرام، وما كان منها طبولاً وآلات وترية ومزامير ونحوها فحرام! فمثل هذا لا تملك إلاّ أن تعجب منه! فإن القسم الأول الذي هو أصوات عصافير لا يعرف في المعازف، ولا وجود له إلاّ في مخيلته، وإن وجد شيء من هذا فلا يدخل في مسمى المعازف أصلاً.

وكذلك مثلُ الذي يفصِّل ذلك التفصيل في الديمقراطية كمثل من يفصِّل في الخمر، فيقول: ما أسكر منها فهو حرام، وما لم يسكر فخمر ليست بحرام، وغفل هذا عن أن ما لم يخامر العقل لا يسمى في لغة العرب ولا في كلام الناس خمراً، وإنما هو خمر في مخيلته، حقيقته عصير سماه بغير اسمه، وتغيير مسميات الأشياء لا يغير في حقائقها شيئاً، ولهذا قال ﷺ، كما في حديث أبي مالك الأشعري: «لَيشرَبنّ ناس من أمتي الخمرَ يسمونها بغير اسمها»[1]، فتغيير اسم الحلال لا يغير من حقيقة حكمه، وتغيير اسم الحرام كذلك لا يغير. والحديث عن ديمقراطية لا وجود لها في غير ذهن صاحبها، لا يغير من حكم الديمقراطية الموجودة شيئاً.

(١) رواه أبو داود في سننه (٣٦٨٨)، وصححه الألباني.

ومن الفروق كذلك بين الرجلين: أنك تجد من يروم تقليل المفسدة - في الغالب - له برنامج آخر وتصور صحيح، يمكن أن تقام على أسسه دولة الإسلام، بخلاف الثاني؛ فغاية همه الانخراط في عمل يرى أنه مشروع يحقق ما يصبو إليه.

وعوداً على بدء؛ فإن في العصر الحديث تجارب متعددة، تتفاوت في قربها وبعدها من تحقيق هدفها في التمكين، لكن نتائجها تؤكد أن تجريد الوسائل عن محددات الشريعة وضوابطها ليس هو طريق تمكين أمة الرسالة الخالدة.

إن كثيراً من الدعوات الإصلاحية في واقعنا المعاصر تغيب عنها هذه الحقيقة المهمة، وهي: أن صلاح الأمة اليوم منوط بتحقيق ما حققته الأمة في سابق عهدها، حتى نالت العزة والتمكين.

وهذا يقضي بأن الرجوع إلى الدين متحتم على مجموع الأمة، وهو الطريق التي منها يعود للأمة عزها الضائع ومجدها التليد، وقد وعى سلفنا الصالح هذا الأمر وعياً تامّاً، وعلموا أن الريادة والعزة لهذه الأمة ورفع الذل عنها؛ لا يكون إلا بالتمسك بدين ربها الذي ارتضاه لها، وأنزله لإصلاح شأنها من فوق سبع سماوات، لذا قال عمر - رضي الله عنه -: «إنا كنا أذلَّ قوم، فأعزنا الله بالإسلام؛ فمهما نطلب العز بغيرِ ما أعزنا الله به؛ أذلّنا الله»[1].

وطليعة الأمة، عليها أن تسلك بالأمة هذا السبيل، موقنين بما قاله الإمام مالك - رحمه الله -: «لن يُصلِح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أوّلها»[2]، ومصداقه في كتاب

(١) رواه الحاكم في المستدرك، ١/ ١٣٠ (٢٠٧)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) ينظر اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام، ١/ ٣٦٧.

الله - تعالى - قول الحق - سبحانه - : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، ولن يتم هذا إلاّ بالصدور عن آراء العلماء الراسخين المرضيين، الذين علموا دين ربهم، وتمسكوا بطريقة سلفهم، وفقهوا واقع أمتهم، فهم يسيرون على ما كان عليه الرعيل الأول في العلم والعمل، من دون إغفال لمتغيرات العصر، أو حيدة عن الثوابت المقررة.

إن بعض الدعاة يفرحون عندما يرون الشارع يموج بأعداد ضخمة من المسلمين المؤيدين لمن ينادي بتحكيم الشريعة في المجتمع، أو عندما تصوت الجماهير للداعين إلى ذلك، فيحققون مكاسب في الانتخابات. وهذا أمر مفرح؛ من جهة أنه يدل على مدى ارتباط الأمة بأصولها، وأن نداء الإيمان يلقى قبولاً لدى فئات كثيرة في المجتمع، لكن الواقع يشهد كذلك بأن هذه التحركات الشعبية العاطفية سريعةَ الانفعال، قصيرةُ النفس، سريعةُ الخمود، لا تطيق الصبر والانتظار وتحمل المشاق في سبيل تحقيق الأهداف، فيخطئ من يخطئ حينما يجعلهم سَرَاةً يقررون ويأمرون ويخططون، أو يجعل لهم حرية اختيار من يفعل ذلك منهم بغير ضابط، بل لا بد لهم من سراة، وهذا ما أدركه العربي الأول بعقله الراجح؛ حيث قال:

لاَ يَصْلُحُ النّاسُ فَوْضَى لاَ سَرَاةَ لَهُمْ ولا سَرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا(١)

غير أن هؤلاء السراة، ينبغي أن يكون على رأسهم من أَمَرَ الله بالرد إليهم من

(١) البيت للأفوَه الأودي (ت: ٥٤ ق.هـ)، وهو من البحر البسيط، والسَّراة: أشراف القوم وأهل الفضل منهم.

العلماء، وإن لم يكن ذلك؛ فسوف يذهب بعض الناس مذاهب خطرة، وعلى أحسن الأحوال: يضمحل الحماس بعد أمد ويتلاشى.

وتأمل يوم أن تطاول المجرمون على مقام النبوة في الدنمارك أول مرة، فصوروا الصور ورسموا الرسوم: امتلأت شوارع المسلمين بالتظاهرات الغاضبة لنبيها - عليه السلام -، ثم ما لبثت بعد حين أن هدأت وفترت، على الرغم من أن أعداء الله لم يُقَدِّموا ما يذكر، بل ربما أحدث بعضهم مزيد طعن وإساءة، وصدق رسول الله ﷺ حيث قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل!»[1]، فالغثاء هو الزَّبَد الذي يحمله السيل؛ يكون منتفخاً منتفشاً عليه، وقد يكون من الكثرة بحيث يغطيه، فيحسبه المرء شيئاً وما هو بشيء؛ إن هو إلاّ زَبَد يذهب جُفاءً، سرعان ما يتلاشى.

وهكذا مشروعات من يصدرون عن غير الراسخين، ممن يزعمون التمكين لهذا الدين، وصبغ المجتمع بصبغته في مناحي الحياة المختلفة.

(١) سبق تخريجه.

الوقفة الخامسة عشرة

عوائق في طريق التمكين

....

لعل من المناسب هنا أن نركز على العوائق التي حالت بين الأمة وتحقيق التمكين، التي سببت كل ما نراه من مظاهر ضعف جرّأت العدو على مقدسات الأمة ومقدراتها؛ فما هذا التطاول الذي وقع على النبي ﷺ إلا أحد نتائج هذا الضعف. وهذه العوائق تمثّل مجموعة من التحديات التي تواجه الأمة في العصر الحديث، مما له أكبر الأثر على وجودها أمةً لها استقلاليتها وخصوصيتها، سواء في حاضرها أو مستقبلها. ومن أعظم هذه التحديات وأهمها ما يلي:

التحدي الأول: الجهل: ونعني به هنا الجهل بالعلم الشرعي؛ فمما لا يخفى على كل ذي لب وبصيرة: أن الأمة تعاني من نقص حاد في العلماء؛ فكلما مات عالم ترك مكانه ثغرة لا تكاد تجد من يسدها، والنتيجة البدهية لذلك: أن يقل العلم ويكثر الجهل؛ مصداقاً لقوله - عليه السلام -: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد؛ ولكن يقبض العلم بقبض العلماء. حتى إذا لم يُبقِ عالماً؛ اتخذ الناس رؤوساً جُهَّالاً، فسُئِلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»[1].

---

(١) البخاري، ١/ ٥٣ (١٠٠)، مسلم، ٤/ ٢٠٥٨ (٢٦٧٣)، طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت، بتعليق محمد فؤاد عبد الباقي.

إن حاجة الأمة لعلماء الشريعة أعظم من حاجتها للطب والهندسة والاختراعات العصرية؛ إذ جهل الأمة بدينها أعظم حاجز يحجزها عن التمكين في الأرض؛ فإن كان جهل الأمة بالعلوم الحديثة يفسد عليها بعض دنياها؛ فإن جهلها بأمور دينها يفسد عليها دنياها وأخراها معاً.

فهذا الجهل سيقودها إلى الوقوع في كثير من الممارسات الخاطئة، وربما نِسبتها إلى الدين وهو منها براء، وهو ما يعطي الطاعنين والمتطاولين مجالاً خصباً يبثون أحقادهم من خلاله.

فمن أعظم الواجبات على الأمة في هذا العصر: نشر العلم الشرعي بين أبنائها، وإنشاء آليات مستقرة تكفل تخريج العلماء لسد الفراغ الحاصل.

التحدي الثاني: الفرقة والاختلاف والتنازع: وهذا التحدي قد يكون فرعاً من سابقه، وقد يكون فرعاً للأهواء والشهوات، وقد يكون سببه غير ذلك. وأيّاً ما كان؛ فهو كفيل بإعاقة الأمة عن تحقيق التمكين، حتى إن كان فيها من تعداد العلماء ما يكفي؛ فكيف والحال كما لا تخفى؟

قال - تعالى -: ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [**الأنفال**: ٤٦]، وقال - عليه السلام -: «دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء؛ هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر؛ ولكن تحلق الدين»[1]، فبيّنت الآية الكريمة عاقبة التنازع الوخيمة على معاش المسلمين، وبيّن الحديث الشريف عاقبته على معادهم، وهذا يستدعي استشعار خطورة الأمر والعمل على إزالة أسبابه.

(١) سنن الترمذي، ٤/ ٦٦٤ (٢٥١٠)، وحسنه الألباني، الطبعة الثانية لمكتبة مصطفى البابي الحلبي - مصر (١٣٩٨).

التحدي الثالث: تداعي الأعداء: وهو نوعان؛ مادي ومعنوي، ومحور كلامنا هنا عن النوع الثاني الذي سبق بيان خطورته، وهو المتمثل في التطاول على مقدسات الأمة؛ إما ببث الشبهات لصرف الناس عن دينهم، وإما بالاستهزاء والطعن لإغاظة المؤمنين وصد الناس عن الدخول في الإسلام. والملاحظ أن مهمة بث الشبهات يقوم بها جنباً إلى جنب مع أعداء الخارج قومٌ من بني جلدتنا؛ مصداقاً لما أخبر به النبي ﷺ، من حديث حذيفة - رضي الله عنه -: «دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها. قلت: يا رسول الله، صفهم لنا! قال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا»[1]، وهؤلاء لا يجرؤون - غالباً - على الطعن في الدين مباشرة؛ فهذا متروك لأعداء الله من خارج بلاد المسلمين.

فهذه بعض أهم التحديات والعوائق في طريق التمكين، التي رأيت تناولها هنا، وليس معنى الاقتصار على ما ذكر أن باقي التحديات ليس على الدرجة نفسها من الأهمية؛ بل إن منها ما يحتاج إلى إفراده بمؤلفات خاصة لمناقشة آثاره وسبل مواجهته؛ كالغزو العسكري الذي تتعرض له الأمة في مناطق عدة من العالم، وكذلك ما امتلأت به حياة المسلمين من منكرات ومخالفات شرعية، هي من أكبر الأسباب المؤدية لما تعاني منه الأمة من ذل وقهر وتسلط الأعداء، إلى غير ذلك من التحديات التي ينبغي أن تواجهها الأمة، وهو الأمر الذي يجب أن يكون للعلماء دور حاضر وقائد فيه.

---

(١) البخاري، ٤/ ٣١٧ (٧٠٨٤)، مسلم، ٣/ ١٤٧٥ (١٨٤٧).

الوقفة السادسة عشرة

سبل علاج التطاول على مقدسات الأمة

....

إن مما يحسن التنبيه إليه: أن العلاج الذي نملكه يتعلق - أولاً - بالتغلب على التحديات التي تواجه الأمة وتعيق حركتها في سبيل تحقيق التمكين في الأرض. والتحديات الكبيرة والكثيرة التي تواجهها الأمة في هذا العصر، التي ذكرنا فيما مر بعضها؛ تستلزم من الجميع التعاون على أهداف مشتركة، وانتهاج أسلوب العمل القائم على المؤسسات والتكتلات؛ للتغلب على هذه التحديات؛ فالتحديات الكبيرة تستوجب أعمالاً كبيرة، وهذا لا يتيسر للأفراد عادة؛ فلا بد من توحيد الجهود بالتعاون مع المعنيين، أو بالانتظام في مؤسسات تسعى لمواجهة هذه التحديات، بالإضافة إلى العمل الفردي، الذي يظل له مكانه. أما العمل المنفرد خارج السرب بالكلية؛ فإنه وإن كان مهمّاً وله أثره في محيطه، إلا أن تأثيره يبقى في حيز ضيق، ولا يمكن أن يأتي بحل لأزمات الأمة العامة، ما لم تتح لصاحبه قدرات فائقة.

ثم إن هذا العلاج يتعلق - ثانياً - بعلاج المظاهر والأسباب التي ساعدت في تشوّه صورة الإسلام في الغرب مما للمسلمين يد فيه؛ كتصحيح واقعهم، وإنكار المنكرات التي ليست من الإسلام في شيء، وتبيين الدين الصريح الناصع الذي جاء به محمد ﷺ والاجتهاد في التعريف به، مع الدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي

أحسن. ونستطيع أن نفصل بعض طرق العلاج المتاحة فيما يلي:

أولاً: محاربة الجهل، ويمكن في هذا المجال عمل ما يلي:

١ - دعم العلوم الشرعية وأهلها مادياً ومعنوياً؛ ويكون ذلك بسبل شتى؛ منها: محاولة تفعيل دور الأوقاف الإسلامية، فتُوقف الأوقاف على إنشاء معاهد العلم ومراكز البحوث، وكفالة طلاب العلم وأهله وكفايتهم. وقد كان هذا الأمر معهوداً في عصور الإسلام الزاهرة، ثم بدأ يقل إلى أن قُصِر الأمر على نطاق ضيق، ولا سيما بعد تأثر المسلمين بمد التغريب الذي أفلح في تعظيم العلوم التجريبية وغير الشرعية في نفوس الناس، وبالمقابل قلل من قيمة العلوم الشرعية وقلل من مكانة أهلها، وضيَّق عليهم في وسائل العيش الكريم، حتى أصبحت لا مكان لكثير منهم في بعض بلدان المسلمين داخل الدولة أو مؤسسات المجتمع، مع أنه لا غِنى لمؤسسة من مؤسسات الدولة والمجتمع عن باحثين وعلماء، إن كانت تلك المؤسسة تخدم حقّاً حضارة إسلامية.

والمقصود أنه لا بد من دعم نشر العلوم الشرعية وتقويتها وتقوية أهلها، دعماً مادياً ومعنوياً، يبين مكانة المشتغلين بها ويرسم صورتهم الحقيقية.

٢ - أن يقوم العلماء باختيار من يتلمسون فيهم النبوغ والصلاح من طلابهم لكفالتهم؛ مادياً عبر الأوقاف وغيرها؛ وعلمياً بعمل منهج خاص لهؤلاء النابغين، يهدف إلى تخريج علماء متخصصين في شتى مجالات الشريعة، كما يصنع بطلاب بعض التخصصات التجريبية. وفي أخبار السلف ما يدل على عنايتهم بمن وجدوا فيه مخايل النبوغ.

٣ - تشجيع الأسر المسلمة على أن توقِف كل أسرة ابناً من أبنائها أو أكثر لطلب

العلم الشرعي؛ كما فعلت امرأة عمران حين أوقفت ما في بطنها لعبادة الله: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥].

٤ - من المهمات في هذا الباب: التنسيق بين علماء الإسلام ودعاته في كل بلد من بلاده، ولو عن طريق إنشاء جمعيات للعلماء تقوم بالبحث عن الواقع العلمي في بلدان المسلمين، ويتشاورون ويتناصحون في ما ينبغي لهم، ويعين بعضهم بعضاً فيما يجب عليهم.

٥ - وضع خطط لنشر العلوم الشرعية ورفع منسوب المعرفة لدى عموم الأمة بكافة الوسائل التقليدية منها والمبتكرة؛ ابتداءً من الدروس والكلمات في البيوت والدور والمساجد والمحافل، إلى مبتكرات العصر؛ كالمحطات الإذاعية، والقنوات الفضائية، ومواقع الشبكة العنكبوتية، بالإضافة إلى نشر كتب تحوي كل ما يحتاج إليه المسلم من علوم في علاقته مع ربه ونفسه ومحيطه. وينبغي أن يكون كل ذلك بأسلوب مبسط يناسب العصر وحال الناس.

ثانياً: **السعي لحسم باب النزاع والفرقة والاختلاف**، ويمكن في هذا المجال عمل ما يلي:

١ - توحيد المواقف التي لا بد من توحيدها تجاه بعض القضايا، وبالأخص التي يكون النزاع فيها سبب فشل؛ وذلك بالرجوع إلى المرجعيات الشرعية والعلماء الربانيين، أو الجمعيات والهيئات والمجامع المختصة.

٢ - الرجوع إلى أهل الشأن لتحديد الموقف من الفرق والطوائف التي يكون الخلاف معها غير سائغ، والتزام الجميع - علماء ودعاة وعامة المسلمين - بمواقف لا تنقض

ما تقرر لجمهور الأمة من قِبل علمائها وهيئاتها العلمية التي ارتضوها، مراعين في ذلك المصالح العليا للأمة.

٣ - العمل على حل ما قد يحصل من تنازع بين العلماء داخل البلد الواحد، وكذلك ما قد يحصل بين علماء الإسلام الصادقين الناصحين الحادبين عليه على مستوى العالم؛ فالخلاف لا بد أن يقع، لكن ينبغي ألا يحصل بسببه اختلاف وتدابر، ولا سيما في الاجتهادات المتعلقة بمسائل يتفق علماء الإسلام قاطبة على أصولها، ومنها المتعلقة بالإساءة إلى دين الإسلام ونبيه، عليه الصلاة والسلام.

٤ - بذل كل الجهود الممكنة في جمع صف الأمة شعوباً وحكومات، والعمل على منع وقوع النزاعات بينهم، والحد من آثارها إن وقعت؛ عن طريق منظمات ومؤسسات إسلامية دولية أو إقليمية أو محلية، وتفعيل دور العلماء في مناصحة الحكام؛ لتضييق دائرة الخلاف الذي من شأنه الزيادة في ضعف الأمة.

وفي هذا الباب؛ فإنه يقع على عاتق طلبة العلم والمثقفين دور كبير؛ لما لديهم من انتشار وتواصل مع الجمهور قد لا يتاح للعلماء مثله؛ ويتمثل هذا الدور فيما يلي:

١ - الالتزام بما يقرره أهل الشأن من العلماء والهيئات العلمية، ولا سيما في الشؤون العامة، فلا يفتئتوا على أهل التخصص بمسوغ الثقافة العامة، بل عليهم السعي لنشر الوعي بين المسلمين؛ وفقاً لما قرره أهل العلم المعنيون؛ حسماً لمادة الخلاف الذي قد ينجرّ إليه بعض العامة تعصباً من دون أن يكون لهم مزيد اطلاع على طبيعة الخلاف وأبعاده.

٢ - المتابعة الواعية والمستمرة لواقع المجتمع؛ لرصد حالات المخالفات المفضية للتنازع والعمل على إزالتها مباشرة، أو عن طريق الرجوع إلى العلماء أو المعنيين الذين

لا يحيطون بما أحاط به أولئك المثقفون؛ نظراً لمباشرتهم مجالات حياتية مختلفة.

٣ - توعية الجمهور بخطورة كافة أشكال الاختلاف والتفرق، وأثره السلبي على مسيرة الأمة نحو التمكين.

٤ - تسخير الوسائل العصرية من أجل ذلك؛ كل بحسب تخصصه؛ فالصحفي يُسَخِّر عموده، والإذاعي يبذل كلمته، والفضائي يبث برامجه، والمعلم والمربي يغرس القيم في نفوس طلابه، وكل واحد على ثغر.

ثالثاً: مواجهة التداعي المعنوي: وهو - كما سبق - إما بإثارة الشبهات، وإما بإثارة الطعون والاستهزاء.

■ الواجب حيال الشبهات المثارة:

١ - التحرر من الهزيمة النفسية، وتقرير أحكام الإسلام بقوة ووضوح، وبيان بطلان الباطل - وإن أُلبِس ثوباً حضارياً - بجلاء لا غموض فيه.

وبحمد الله، فإن ديننا كامل بشهادة الله سبحانه؛ لأن دستوره كتاب عزيز ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]، فهو صالح ومصلِح لكل مكان وزمان. وكل من احتج عليه ليبطل بعض ما فيه، فحجته داحضة عند ربه ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨]، فليس مقبولاً بحال أن نرد الشبهات عن الإسلام كأنه قابع في قفص الاتهام، أو كأن أحكامه متهمة، والمنكَر والباطل الذي يدين به العدو بريء من التهمة! بل ينبغي السعي إلى ما فوق ذلك؛ إلى تجاوز حصر الخطاب في التبرئة والتسويغ، وإلى بيان أن كل ما جاء به الإسلام من أحكام وتشريعات حقٌّ لا بد من التزامه، وليس للبشرية صلاح

بغيره، وأن من خالف هذا الحق فقد جنى على نفسه وعلى الناس كافة، وأنه قد أتى شيئاً إدّاً، ومنكراً ينبغي أن يستره.

٢ - عرض الحقائق كاملة على الجمهور كما هي من دون موارية أو تـزيين أو تزييف؛ لأن ذلك أدعى لرد الشبهة؛ فعرض بعض الحقائق وإخفاء بعضها ليس مقبولاً - ولا سيما في عصر الفضاء المفتوح - إذ سماع بقية الحقيقة من الأعداء يفقد الثقة في كلام الراد على الشبهة، ويعطي العدو مصداقية قد يبث بواسطتها مئات الكذبات، إضافة إلى الحقيقة التي أتى بها.

ولا شك أن الشُّبَه التي تثار فيها السمج الضعيف، وفيها ما يخطف القلوب ويزعزع غير الراسخين، وفيها ما هو محض افتراء، وفيها ما بني على أخطاء المسلمين في تطبيق الشرع على واقعهم. والرد على العدو يتطلب الصراحة والوضوح في التعرض لذلك كله بما يناسب كل مقام.

ولأهمية هاتين النقطتين، ولخطورة النهج الانهزامي في التعامل مع الشبهات، وهو النهج المستشري عند كثير ممن يسمون «مفكرين إسلاميين»؛ نضرب مثالاً بشبهة قديمة، أعيد تبنيها على مستوى رفيع من قِبل أعداء الله، وهي: أن الإسلام قد انتشر بالسيف.

إننا إنْ وقعْنا تحت وطأة الهزيمة النفسية، فسوف نعد هذه الشبهة تهمة وسبة يجب أن نتبرأ منها بكل حال، وقد يتهرب بعضهم - بزعم الدفاع عن الدين وتقريبه لغير المسلمين - بذكر الآيات التي تحض على الصبر على الأذى، وكف اليد عن القتال، وأنه لا إكراه في الدين، ولكم دينكم ولي دين، وأن القتال إنما أُذن لمن قوتلوا مظلومين، ثم يعرج على أحداث التاريخ؛ ليقول: إن المدينة المنورة والكثير من بلاد المشرق وإفريقية؛ إنما

فتحت بالقرآن، ثم يأتي إلى العصر الحديث، ليؤكد مقولته؛ بكون الإسلام ينتشر في بلاد الغرب الآن بالدعوة والقرآن، لا بالسيف والسنان.

وهذا الكلام صحيح لا ريب فيه، ولكنه ليس كل الحقيقة؛ فالحقيقة الكاملة: هي أن الجهاد مما انتشر به دين الله كذلك، والجهاد في الإسلام شُرِع على ضربين: قتال لدفع الظلم وصد العدوان، وهو جهاد الدفع؛ وقتال لنشر دين الله في الأرض، وهو جهاد الطلب، وليس المقصود منه إكراه الناس على الدخول في الإسلام؛ فإن مثل هذا الإكراه ما عُرِف في تاريخ المسلمين قط. وليس المقصود منه نهب خيرات الشعوب كذلك؛ فهذا مما اعترف المنصفون من أهل الكتاب وغيرهم، أنه ما كان هم المسلمين ولا ديدنهم؛ إنما المقصود به إيصال دين الله إلى الناس في كل مكان، وإزاحة كل مانع أو عائق يحول بينهم وبين الدخول فيه.

فالقتال ما كان غاية في الإسلام قط؛ بل في كل الفتوحات، يخيّر أهل البلاد المفتوحة: بين الدخول في الإسلام، فيكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم؛ أو دفع الجزية التي يعفَون في مقابلها من دفع الزكاة الواجبة على المسلمين، وينعمون كذلك بحماية المسلمين لهم، مع إعفائهم من القتال حال تعرض بلادهم للهجوم من أي عدو كان؛ فإن أبوا الإسلام والجزية فحينها لم يبقَ إلا السيف لإزالة دولة الكفر، وفتح الأبواب لمن شاء من الناس؛ ليدخلوا في دين الله أفواجاً، ولِفرض الحكم الأصلح للبشرية.. هذه هي الحقيقة كاملة.

أما قول نصف الحقيقة؛ فإنه يجني جناية كبرى على ضعيف العقل من المسلمين؛ إذ هو يعلم تماماً أن كثيراً من البلاد قد فتحت بالسيف، فيجد صاحب الشبهة صادقاً فيما يقول، ويبدأ في الشك في أمر من يدفع الشبهة بنصف الحقيقة، وهذا فتح لباب شر مستطير، وكما قيل: «القلوب ضعيفة، والفتن خطافة».

وعلى الطرف المقابل، فإن قول نصف الحقيقة يجني على غير المسلمين كذلك؛ فإنهم قد يسمعون هذا الكلام وهم يعرفون خلافه، فيكون هذا سبباً في صدهم عن الدخول في الإسلام ما دام دعاته لا يقولون الحقيقة، ويتحرجون منها كأنهم يقرون ببطلانها، وفي هذا من الشر والفساد ما فيه.

لذا؛ فإنه لا بد من الوضوح أو الشفافية بلغة العصر؛ فليس في ديننا ما يُستحْيى منه، بل كل تشريعاته ترفع رأس العاقل العالم به، ثم إن الواقع يدل على أن محاولات هذا الفريق الانهزامي لا تجدي فتيلاً؛ فإن الغرب - بمراكز دراساته وبحوثه، ومستشرقيه، وبالطابور الخامس من مستغربيه فينا - خبير بما عندنا.

ولعل الطرف الوحيد المستفيد من هذا التيار - الذي يزعم الدفاع عن الإسلام؛ بكتم بعضه وإنكار بعضه الآخر - إنما هم بعض الساسة؛ ليقرروا للمسلمين أن الإسلام هو ذا، وأن ما عداه تطرف وتشدد، فيقود هذا آخرين للتطرف والتشدد، وإنكار ما عليه الأولون من بعض الحق، وتنقسم الأمة، ويغدو بأسها بين أبنائها.

إن الواجب أن لا نخجل من ديننا الذي ما ترك صغيرة ولا كبيرة إلا وله فيها حُكم هو خير حُكم؛ وكيف نخجل من دينٍ وهو خاتم الأديان القاضي عليها، أنزله اللطيف الخبير بخلقه وبما يصلحهم؟

والاعتزاز بهذا الدين مما تميز به السلف الأولون؛ فسلفنا الصالح - رضوان الله عليهم - ما خجلوا من أي تعليم من تعاليمه، مهما ظهر لبعض ضعفاء العقول أنه مخجل؛ ففي حديث سلمان - رضي الله عنه -: قال له بعض اليهود وهم يستهزئون به: «إني لأرى صاحبكم[1] يعلمكم حتى الخِراءة! قال سلمان: أجل، أمرنا أن لا نستقبل القبلة،

---

(١) يريد بقوله: (صاحبكم) النبي ﷺ، بأبي هو وأمي!

ولا نستنجي بأيماننا، ولا نكتفي بدون ثلاثة أحجار، ليس فيها رجيع ولا عظم»[1]، قال السندي - رحمه الله -: «والأقرب أنه ردٌّ له بأن ما زعمه سبباً للاستهزاء ليس بسبب له، حتى المسلمون يصرحون به عند الأعداء»[2].

إن الذي يقوم بعرض أنصاف الحقائق على الناس ظاناً أن هذا أدعى لقبولهم الإسلام والدخول فيه؛ يجني على الدعوة جناية عظيمة كما سبق، وهو في الوقت نفسه يجني على نفسه أعظم جناية؛ بإنزاله إياها منزلة ليست لها، فليس هو أحب لهداية الناس من الله - سبحانه وتعالى - الذي يفرح بتوبة عبده، ويكون كذلك قد غفل عن كونه وارثاً للنبي ﷺ، ومقتفياً في دعوته لأثره، وقد قال له ربنا - عز وجل -: ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢]، قال ابن سعدي - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: «فهل أوردوا عليك حجة لا تستطيع حلها؟ أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحاً يؤثر فيه وينقص قدره فيضيق صدرك لذلك؟! أم عليك حسابهم، ومطالب بهدايتهم جبراً؟»[3].

ومن الواجبات في هذا المقام كذلك:

٣ - تبسيط الردود، ومراعاة حال الناس المخاطَبين، وذكر النظائر، وضرب الأمثال في أثناء الجواب بما يعقلون، وعدم نقل الشبهة خارج النطاق المكاني والزماني

---

(١) مسلم، ١/ ٢٢٣ (٢٦٢).

(٢) سنن النسائي بشرح السيوطي، وحاشية السندي، ١/ ٤٢، طبعة دار المعرفة - بيروت، من دون تاريخ أو رقم طبعة.

(٣) تفسير السعدي، ١/ ٣٧٨، الطبعة الأولى لمؤسسة الرسالة (١٤٢٠).

الذي أثيرت فيه، أو البدء بطرح الشبهات للرد عليها؛ وكل ذلك تكثيراً للخير، وتقليلاً للشر وسدّاً لأبواب الفتن.

٤ - استخدام الوسائل الحديثة - كالفضائيات والشبكة العنكبوتية والهواتف المتحركة - في تبيين زيف الباطل، والتوعية ببطلان ما يثار على نطاق واسع، وقد بدأت - بحمد الله - مشروعات كثيرة في هذا الصدد؛ فهذه خدمة رسائل جوال تعرف بالإسلام، وتلك بسيرة النبي - عليه الصلاة والسلام -، وأخرى بكنوز في تدبر القرآن، بالإضافة إلى جهود كثير من المواقع المفيدة على الشبكة العنكبوتية، وكذلك جهود الإذاعات والفضائيات الإسلامية التي بدأت تأخذ مكانها.

٥ - التحذير من رؤوس الضلالة الذين يلقون الشبهات، والتشهير بهم؛ جزاء وفاقاً لما اقترفته أيديهم؛ كي لا ينخدع بهم من لا بصيرة له بحقيقة أمرهم من المسلمين، وبيان أنه ما من باقعة يرمون بها الإسلام ونبيه - عليه السلام - وأهله، إلاَّ كانوا هم أحق بها.

٦ - السعي لدى الجهات المعنية لتفعيل الأنظمة التي تنص على عدم التعرض لثوابت الأمة، وتعاقب على هذا الجرم، أو السعي لإصدار مثل هذه الأنظمة في حال عدم وجودها، والقيام برفع الدعاوى على مثيري الشبهات وناشريها؛ إذا كانت الأنظمة المحلية تسمح بذلك.

٧ - عقد المناظرات المفتوحة من قبل المتخصصين المتمرسين مع رؤوس الجهل والضلالة ممن يروجون لهذه الشبهات والضلالات؛ لتزييف دعاواهم، وبيان أن كل نقيصة يحاولون إلصاقها بالإسلام هو منها بريء، وباطلهم أولى بها؛ فرؤية الباطل يتلجلج أمام الحق من أعظم وسائل دفع شبهه عند العامة، ولا يخفى أن لهذا ضوابط

ينبغي أن تُدرس، وملابسات ينبغي أن تُعرف، فلا يقدم على نحو هذا العمل بغير دراسة، وإلاّ فإن مردَّه قد يكون سيئاً. والأصل أن حجة الله ظاهرة، وأن الحق أبلج، والباطل لجلج، غير أنه ليس كل فرد مُؤَهَّلاً لهذا العمل، ولو كان عالماً.

ويمكن أن يضاف إلى ما سبق فيما يخص المثقفين:

١ - أن يكونوا حلقة وصل بين العلماء وعامة الناس؛ فإن الردود على بعض الشبهات قد يخفى وجهها على بعض الناس، فلا بد للمثقفين من بيانها لهم، أو عرض الأمر على العلماء؛ لتوضيح الأمر بمزيد بيان.

٢ - القيام بأنشطة مكملة لجهود العلماء، فارضة لما قرروه في أرض الواقع؛ وذلك من كل بحسبه، وربما كانت ثمّ أمور عامة؛ من نحو حملات جمع التوقيعات وإرسالها إلى الجهات الناشرة للشبهات؛ كي تقوم بنشر الحقائق، وتتوقف عن نشر الشبهات المستندة إلى الافتراءات والأكاذيب، وأيضاً نشر الردود على الشبهات الأخرى، التي يكون مستندها التفسير المنحرف، أو الروايات المكذوبة المبثوثة في بعض الكتب.

■ **الواجب حيال الطعن والاستهزاء:**

كما سبق القول، فإن طعن الأعداء في المقدسات إنما هو بسبب الضعف الذي تعاني منه الأمة، تماماً كالطعن الذي كان من كفار قريش في مكة يوم كان المسلمون مستضعفين، والذي توقف عندما أصبحت للإسلام دولة وشوكة أو كاد يتوقف. فعلينا إذاً أن نعمل لتكون أمتنا أمة قوية يَرْهَبُها الأعداء؛ فإن القوي مهاب، ولهذا لا يجرؤ كثير من هؤلاء المتطاولين على الطعن في «المحرقة اليهودية»؛ فنفوذ أدعيائها كَفَل لها من

القوانين ما يُجرِّم به الطاعنون فيها. وقد قال الله - تعالى - : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقبل ذكر بعض المقترحات المتعلقة بهذا الصدد؛ لا بد أن نقرر بوضوح أن الواجب قتل الساب المستهزئ بالنبي ﷺ؛ سواء كان مسلماً أو كافراً معاهداً. أما المسلم فبالإجماع الذي نقله جمع عن أهل العلم. وأما الكافر ولو كان ذميّاً؛ فبدلالة الأدلة المتظاهرة من الكتاب والسنة، وإجماع الصدر الأول، وإن حدث الخلاف بعدهم، وقد قرر هذا شيخ الإسلام ابن تيمية، في كتابه الجليل (الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ)، بما لا مزيد عليه. . . فلْيُنْظَرْ!

وقرر في أثنائه أن القتل لا يسقط عن الساب وإن تاب فأسلم، لا يستثنى من ذلك أحد في ظاهر تقريره إلاّ من أسلم قبل القدرة عليه من الكفار الذين كانوا يستحلون السب؛ فهؤلاء تقبل توبتهم على الصحيح إن شاء الله تعالى. أما غيرهم؛ فلا بد من إقامة الحد عليه وإن أسلم، وقد أسهب - رحمه الله - في تقرير دلالة ذلك بذكر الأخبار والآثار، وما يشهد لها من الأصول والاعتبار.

وهذا الواجب لا يسقطه عنّا غيرُ العجز عنه؛ فمتى حصل التمكين، وجب علينا إنفاذه بمستحقه من أعداء الله الطاعنين في رسله، صلوات الله وسلامه عليهم.

وإن أوقعه بعضُ المسلمين بمن يسب رسل الله وينتقصهم؛ فينبغي ألا ننكر عليه لعجزنا، أو لانتصاره لرسول الله ﷺ بنفسه؛ ما لم تترتب على فعله مفاسد أعظم من سبه ﷺ.

والذي يقرر هذا هم العلماء الراسخون، لا أنصاف المتعالمين المنهزمين! ويجدر بنا هنا التنبيه إلى الفرق بين تقرير مشروعية قتل الساب وإنفاذ حكمه، من دون مراعاة وقته وأسلوبه وما يترتب عليه، والحكمة: هي فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي[1].

ولئن كنا قد قدمنا فيما سبق تصوراً لما يجب أن تسلكه الأمة كي تتغلب على ضعفها، ومن ثم لا يتجاسر أحد على النيل من مقدساتها؛ فإنه لا بد على الرغم من حالة الاستضعاف التي تعيشها الأمة، من اتخاذ خطواتٍ ما في مواجهة هذه الطعون، تكون كفيلة بتقليل ضررها، والحد من تكَرُّرها قدر الإمكان؛ إذ القضاء عليها بالكلية غير ممكن إلا بتحقق التمكين. ومن المقترح في هذا الصدد:

١ - توحيد مواقف العلماء تجاه مثل هذه الأمور، وضرورة صدور الهيئات المعنية عن رأي العلماء؛ درءاً لأثر الشقاق، فيخرج العلماء للأمة بموقف موحد يبين لها ما يجب عليها فعله في ضوء كل أمر مستجد، وفي هذا منعٌ للبلبلة وانقسام ردود أفعال الأمة، مما يضعف أثرها.

٢ - تفعيل التعاون والتنسيق مع الجمعيات والهيئات والمراكز الإسلامية المنتشرة في الغرب؛ لوضع خطط قصيرة المدى ومتوسطته وطويلته؛ للتصدي لحملات التطاول بصفة خاصة، ولنشر الدين الإسلامي بصفة عامة. وينبغي في هذا المجال للهيئات الفاعلة والمؤسسات الكبيرة؛ أن تقدِّم الدعم اللازم لمثل ذلك، سواء كان دعماً ماليّاً أو علميّاً شرعيّاً أو غير ذلك.

٣ - العمل على أن يبذل حكام المسلمين ما في وسعهم تجاه الحدث، للإسهام في

(١) انظر في هذا المعنى: مدارج السالكين لابن القيم، ٢/ ٤٧٩.

إيقاف الإساءات ومعاقبة المسيئين.

٤ - مقاطعة الدول التي تشجع على التطاول أو تأذن به أو تتضامن مع المستهزئين، مقاطعةً شاملة؛ سياسية وثقافية واقتصادية، وينبغي أن يكون ذلك على مستوى الحكومات الإسلامية، فإن لم يكن فعلى مستوى الشعوب؛ فللشعوب أثر كبير في المقاطعة. ولا أقل من أن تسلك الجماهير سبيل المقاطعة الاقتصادية الواعية لمنتجات هذه الدول. وسلاح المقاطعة من أفضل وأقوى ما تملكه الأمة في هذا الوقت، وقد أثبتت التجارب أن له وقعاً كبيراً.

٥ - التصدي لأهل الباطل الذين يقومون بأنفسهم بعمليات التطاول، أو يقومون بتشجيعها ودعمها؛ وذلك باستخدام كافة الوسائل المتاحة، وخوض كافة المجالات التي يخوضها أولئك، مع إيجاد قنوات ومنابر إعلامية قادرة على مخاطبة عقول الغربيين خطاباً إعلامياً عصرياً نقدياً موضوعياً بعيداً عن الخطاب العاطفي التقليدي، أو الخطاب الانهزامي المتنصل من الحقائق والثوابت. كل ذلك مع تقدير الأولويات للتعامل مع الأهم فالأقل أهمية، ومع أخذ ضابط المصالح والمفاسد في الحسبان. فكم من متطاول غُمْر لا يأبه له أحد ولا لما يقول؛ يصبح بين عشية وضحاها نجماً لامعاً، تفتح له أبواب الصحف والمجلات والقنوات؛ بسبب قيام الغيورين بالرد عليه! وكان الأولى في حقه أن يهمل حتى يطويه وكلامَه النسيان. كما أن بعض هذه الطعون على شناعتها قد تكون منحصرة في نطاق ضيق، فيأتي رد الفعل ليتجاوز نطاقها بمراحل، مما قد يشجع الأعداء في غير مكان على تكرار الفعل، فتتسع دائرة الإساءة بدلاً من أن تضيق.

إن الفضائيات الإسلامية - ويتوقع أن يكون لها حضور واضح في السنوات المقبلة - مدعوة لأخذ هذا الأمر في الحسبان، ويقع على عاتق القائمين عليها عبء كبير في

هذا الباب؛ فهو عليهم بمنزلة فرض الكفاية، فينبغي أن تُعنَى هذه الفضائيات بتصدير الثقافة الإسلامية أشد من عناية الغربيين بتصدير ثقافتهم عبر أفلامهم وموادهم الإعلامية المختلفة.

٦ - الرد على هذه الطعون بالمثل وفق الضوابط الشرعية؛ وذلك بذم الكفر وأهله، وبيان عواره، ونشر ذلك بين أظهر الطاعنين، مع مراعاة المصالح والمفاسد. ويدل على مشروعية هذا الأمر قول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لحسان بن ثابت - رضي الله عنه -: «اهجهم - أو هاجهم - وجبريل معك»[١]، فأمره بهجاء قريش لـمّا هجوه، عليه السلام. قال الحافظ: «في الحديث جوازُ سب المشرك جواباً عن سبه للمسلمين، ولا يعارض ذلك مطلق النهي عن سب المشركين؛ لئلا يسبوا المسلمين؛ لأنه محمول على البداءة به، لا على من أجاب منتصراً»[٢]؛ لكن الحذر في أثناء ذلك من التعرض لنبي من أنبياء الله أو حقٍّ قال به أعداء الله؛ فإن من الخطأ الذي وقع فيه بعض الكتبة المتحمسين نيلَهم من بعض الأمور في التوراة والإنجيل التي لها وجه مقبول، أو على الأقل ينبغي ألا تصدق ولا تكذب، فكيف يزدرونها وقد تكون حقّاً من عند الله ملائماً لذلك الوقت؟ نعم ما بدا بطلانه وثبت تحريفه له شأن آخر، والحديث عن مطلق النيل بغير تحقيق ولا تحرير.

٧ - التصدي بقوة للعلمانيين والتغريبيين في بلادنا ممن تسوِّل لهم أنفسهم التلميح أو التصريح بأي شكل من أشكال التطاول؛ وذلك بتفعيل القوانين التي تُجَرِّم هذا الفعل، وبتطبيق شرع الله - عز وجل - على المعتدين.

(١) البخاري، ٢/ ٤٢٥ (٣٢١٣)، مسلم، ٤/ ١٩٣٣ (٢٤٨٦).

(٢) فتح الباري، ١٠/ ٥٦٣.

٨ - نشر ما اتفق عليه العلماء بين الناس على نطاق واسع، وتوعية الجماهير بضرورة الالتزام به وعدم الانسياق وراء ردود أفعال غير مدروسة، قد تؤدي إلى إتلاف أرواح وأموال حرمها الله، لا علاقة لها بمن سب رسوله ﷺ؛ فمثل هذا التعدي جَوْر مما يضر ولا ينفع.

٩ - نشر العلم الشرعي والوعي الديني بين أفراد الأمة الإسلامية، ومحاربة مظاهر الانحراف التي تشوه صورة الدين، وتعطي المتطاولين فرصة لاستغلالها في تحقيق مرادهم. والعبء الأكبر في ذلك يقع على عاتق أهل العلم وطلابه الغيورين، كما يقع على عاتق المثقفين من أبناء الأمة، كما مر بيانه.

١٠ - تبصرة الناس بواقعهم، وأن هذه الانتهاكات لحرمة الأمة هي بسبب تقصيرها في حمل الأمانة التي أوكلها الله بها، وأن التصدي لها لا يكون بالعواطف فحسب؛ بل بالعودة الصادقة إلى الله لاستئناف حياة إسلامية سليمة في المجالات كافة؛ حياة مجتمع جاد يطمح إلى إقامة دولة إسلامية مهابة، لا يجرؤ كافر نذل على التطاول عليها أو على مقدساتها.

١١ - الاتصال بوسائل الإعلام التي تروج لهذه الانتهاكات، وتوظيف حق الرد المكفول فيها لتزييف تلك الطعون، وبيان حقيقتها، وعرض دين الإسلام كما هو؛ إظهاراً للحق، وكبتاً للباطل؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

١٢ - استخدام كافة الوسائل المتاحة؛ من جرائد ومجلات، ومواقع على الشبكة العنكبوتية؛ للرد على الافتراءات والطعون، وتجلية حقيقة دين الإسلام، كلٌّ بحسبه وفي مجال تخصصه وموقعه، وبلغته التي يحسن.

١٣ - القيام بحملات لجمع التوقيعات على بيانات إدانة مثل هذه الطعون، التي

لا تتوافق مع الأديان أو الأعراف أو الأخلاق، وإرسالها إلى مروجي هذه الطعون وحكوماتهم؛ للضغط من أجل إزالتها، والوعد بعدم تكرارها.

١٤ - القيام برفع الدعاوى القضائية المدروسة على من يقومون بالتطاول، وعلى الوسائل التي تنشـــر هذه الطعـــون في الـبلاد التي تجرم مثل هذه الأفعال، ومحاولة إلزامها بنشر ما يبين كذب هذه الطعون، والمطالبة بتعويضات باهظة - ينظر في الجهة التي سيُطالب بها من أجلها - لتكون رادعاً لغيرها من الوسائل، مع الحرص على عدم الإقدام على هذه الخطوة إلا بعد الدراسة المتأنية؛ كي لا يستغل أهل الباطل رفض مثل هذه الدعاوى لتأكيد موقفهم ونشر باطلهم؛ بزعم أن الإسلام ضد حرية التعبير؛ فهذه المعركة - وإن كانت قضائية في صورتها الظاهرة - إلا أنها في الحقيقة معركة إعلامية.

١٥ - القيام بحملة توعية بين الناس لمقاطعة وسائل الإعلام تلك؛ إن كان لها وجود في بلاد المسلمين.

١٦ - التواصل مع الشخصيات الفاعلة والمنصفة في بلاد الغرب، التي ترفض مثل هذه الأعمال، والتي تقوم بالدفاع عن الإسلام وحضارته بموضوعية، والتنسيق معها للقيام بحملات مضادة لبيان كـذب هـذه الطعـون وزيفهـا؛ فلا شك أن هؤلاء أقدر على مخاطبة قومهم من غيرهم، والأمر لا يقتصر على أهل الفكر والثقافة منهم؛ بل قد يوجد في القساوسة النصارى والحاخامات اليهود، مَنْ لهم مواقف عادلة مع الإسلام، وهؤلاء هم الأقدر على مخاطبة جمهور رجال الدين المتطاولين. ويُستحسن في هذا المجال السعي بكل الوسائل الممكنة؛ لتكثيف التواجد الإعلامي لهذه الشخصيات في وسائل الإعلام الغربية نفسها، ولا سيما ذائعة الانتشار منها، وهذا يتطلب تضافر جهود أصحاب رأس المال مع المسلمين الغـربيين، بالإضـافة إلى التنسيق مع الجمـعيات

الإسلامية أو الثقافية التي تهتم بهذا الموضوع؛ لإصباغ الأمر صبغة متحركة فاعلة.

١٧ - بث روح الأمل في الأمة بدلاً من روح اليأس، وبيان أن أمثال هذه الطعون قد لحقت بالدعوة في مهدها الأول ثم كانت العاقبة للمتقين. بل إن بعض هذه الطعون مؤشر على قرب الفرج والنصر على الأعداء، إنْ لازمْنا أداءَ ما أوجب الله علينا، كما قد تكرر مع أسلافنا؛ لأن الله - عز وجل - يغار على حرماته أن تُنتهك، لكنه ابتلاء واختبار منه - سبحانه - لنا ولاستقامَتنا.

١٨ - توظيف هذه الطعون في الدعوة إلى الله بين صفوف الكفار الذين قد يحملهم الفضول على الرغبة في التعرف على هذا الدين، الذي تدور حوله المعركة بين الطاعنين فيه والذابين عنه.

١٩ - توظيف هذه الطعون في الدعوة إلى الله بين صفوف المسلمين الشاردين عن الجماعة، ممن ظلموا أنفسهم، وحملهم ما في قلوبهم من الإيمان - على الرغم من ذلك - على أن هبوا لنصرة دينهم، فيؤخذ بأيديهم إلى الطاعة والاستقامة.

وبعد؛ فكل هذا الذي سبق مما ينبغي أن يسعى أهل الإسلام لتحقيقه بحكمة، يعقل أصحابها ما الذي في طاقتهم، وإلى أي درجة يؤثر في تحقيق مطلوبهم، وإلى أي درجة ينبغي أن ترتفع قدرتهم ليحصل تمام مطلوبهم، وكيف لهم أن يرفعوها.

ثم يكون التعامل مع معطيات الواقع تلك، وتدار المعركة، بحيث تُسلَك كل سبيل شرعية توقِف أو تقلِّل من حجم الإساءة للإسلام ولنبيه ﷺ وانتشاره في الغرب، إلى أن يُظهِرَ الله دينه، ويعز عباده الصالحين، ويقطع دابر المستهزئين المتنقصين للمرسلين.

هذا فيما يتعلق بالأخذ بالأسباب المادية الحسية، ولكن ينبغي أن يسبق كل

ذلك الأخذ بالأسباب المعنوية؛ فلا بد من الإخلاص وصدق التوكل على الله - عز وجل -، وربط القلوب به - سبحانه وتعالى -؛ كي تدرك أن النصر في هذه المعركة - كما في كل المعارك - ليس إلا من عند الله، وأنَّ أخْذَنا بالأسباب سالفة الذكر إنما هو من باب الامتثال لأمره - عز وجل -؛ وإلا فلو شاء لأهلك أعداءه وأعداء نبيه ﷺ قبل أن يمكنهم من التطاول. قال - تعالى -: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

ويحسن كذلك الدعاء لأهل الضلال من الكفار بمعرفة الحق واتِّباعه؛ ففي صحيح البخاري: عن ابن مسعود، قال: «كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبيّاً من الأنبياء، ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[1]، وقد بوب البخاري - رحمه الله - في صحيحه: «باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم»، وأورد تحته حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -: قدم طفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه على النبي ﷺ، فقالوا: يا رسول الله! إن دوساً عصت وأبت، فادع الله عليها. فقيل: هلكت دوس. قال: «اللهم اهدِ دوساً وأْتِ بهم»[2].

فكما أننا بحاجة إلى دعاء الله بأن ينصرنا على أعدائنا، ويهلك الظالمين المستكبرين المعرضين من الكافرين المستهزئين؛ فإننا بحاجة إلى أن نسأله - سبحانه - أن يهدي ضالهم غير المستنكف المكابر، أو المعرض المحارب، ويدل حائرهم، ولا سيما أولئك النفر الذين لا يزالون ينافحون عن الإسلام ونبيه، عليه الصلاة والسلام.

(١) البخاري، ٢/ ٤٩٩ (٣٤٧٧)، مسلم، ٣/ ١٤١٧ (١٧٩٢).
(٢) البخاري، ٢/ ٣٤١ (٢٩٣٧)، مسلم، ٤/ ١٩٥٧ (٢٥٢٤).

الوقفة السابعة عشرة

كلمات عن المقاطعة

....

سبق ذكر المقاطعة ضمن وسائل العلاج لحالات التطاول، ولئن كانت المقاطعة مطلوبة في كل الجوانب، فإن أقربها إلى الأذهان وإلى الإمكان ما صار يُعرف بالمقاطعة الاقتصادية، وقد كان لهذه المقاطعة أثر ملموس في أكثر من محطة من محطات التاريخ الحديث، وربما كانت أشهر حالة: ما حصل في أثناء حرب رمضان ١٣٩٣ (أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٧٣م)، بين مصر وسورية من جهة، والدولة العبرية من جهة أخرى، وقد كان للملك فيصل بن عبد العزيز - رحمه الله - موقف مشهود في هذه الحرب؛ حيث قامت المملكة العربية السعودية - إضافة إلى باقي دول الخليج - بوقف إمدادات النفط للغرب الذي وقف مسانداً للدولة العبرية في الحرب كما يساندها في السلم، فسبّب ذلك أزمة كبيرة في مصادر الطاقة في الغرب، حتى صار مشهد السيارات المتكدسة أمام محطات الوقود هناك أمراً مألوفاً.

وقد قامت خلال السنوات الماضية أكثر من حملة مقاطعة للدول المساندة لليهود؛ تضامناً مع إخواننا المرابطين في فلسطين، ودعماً لهم في وجه الحصار والإغلاق والاعتداءات اليهودية.

وخلال أزمة الرسوم المسيئة، نشطت حملة قوية لمقاطعة اقتصادية للدنمارك التي

تولت كِبر هذه الأزمة، وقد لمس العالم كله أثراً كبيراً لهذه المقاطعة التي أحدثت خلخلة وجدلاً كبيراً وانقساماً في صفوف الدنماركيين؛ وما ذلك إلا لأن هذه المقاطعة قد هددت لقمة عيش لشركات وموظفين وعمال، وقائمة كبيرة من المتعاملين مع الدول الإسلامية، الأمر الذي دعا بواحدة من أكبر الشركات الدنماركية - وهي شركة (آرلا فودز) - إلى أن تنأى بنفسها عن موقف حكومتها السلبي، بل الداعم للاعتداء بحجة حرية التعبير، وتعبر عن اعتراضها ورفضها لما حصل، وتتقدم باعتذار مكتوب نُشر في الكثير من البلاد الإسلامية، وفي هذا دلالة على تأثير المقاطعة عليهم.

وبهذه المناسبة، يحسن التنبيه إلى أن اعتذار الشركة المذكورة أو غيرها ليس غاية في حد ذاته، كما أنه لا يقدم أو يؤخر، ولا يمكن أن يكون هو هدف تحرك الأمة، والشركة ليست هي الجاني، ولم تقاطَع ابتداء بسبب جنايتها، ولكنْ تَصَرُّفَ المسلمون معها تصرفاً جائزاً لهم، فليس الشراء منها واجباً ولا لازماً من حيث الأصل، فامتنعوا عمّا يجوز لهم الامتناع عنه لمصلحة كبرى، تتجاوز نطاق الشركة التي تستفيد منها الدولة بتصديرها مواردها وأخذها من ضرائبها، فمقاطعة الشركة نوع من الضغط الجائز على دولتها، ويستوي في هذا المعنى اعتذارها وعدمه. وإلاّ فإن الكلام سهل، وبهذا الطريق السهل تستطيع المؤسسات الدنماركية أن تفسد سلاح المقاطعة. وشرعية هذه السبيل ينبغي أن تكون واضحة مقررة عند طلاب العلم، لا يرد عليها أن هذا أخْذٌ لغير الجناة بجريرة الجناة؛ وذلك لتعلق حال هؤلاء ببني قومهم ودولتهم، وأثر مقاطعتهم عليهم، ومثل هذه العقوبة تشهد لها الأصول الشرعية المقررة، ولهذا قال النبي ﷺ للأسير العقيلي لمّا قال له: بِمَ أخذتني؟ وبِمَ أخذت سابقة الحاج؟! فقال: «أخذتُك بجريرة حلفائك من ثقيف». ثم انصرف عنه فناداه فقال: يا محمد! يا محمد! وكان رسول الله ﷺ رحيماً رقيقاً، فرجع إليه، فقال: «ما شأنك؟» قال: إني مسلم،

قال: «لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح»[1]، قال شيخ الإسلام: «أَسَرَه النبي ﷺ لينال بذلك من حلفائه مقصوده»[2].

وقد أجمع أهل العلم على أنه لو أُخِذَ حربيٌّ أسيراً، لجاز لنا أن نحبسه حتى يردوا أسيرنا، مع أن المقرر في حق الأسير أحد خمسة تصرفات، كلها جائزة؛ فلو عيّنّا واحدة منها لمقتضىً ساغ ذلك، بل حسُن، بل قد يجب. وانتزاعاً من حديث العقيلي، يمكن أن يقال: لو قدِّر أن مقاطَعاً أسلم أو أظهر إسلامه -دعك من اعتذاره- بعد حلول العقوبة، لكان لاستمرار مقاطعته لأجل حلفائه وجه ظاهر، ومن الحكمة ألا يفسد المسلمون سلاحاً بأيديهم هم أحوج ما يكونون إليه لأجل خواطر لم تختمر، وبخاصة أن لمثل هذا السلاح المصلت أثره في الجهود المبذولة على الأصعدة الأخرى؛ فهو يثري القضية الإعلامية، ويقوي المطالبة القانونية، وقد عُلِم أن جدل القوي الذي يملك شيئاً ليس كجدل الضعيف، ومن جيد أبيات الحكمة وينسب لحسان - رضي الله عنه - قوله:

دعا المصطفى دهراً بمكة لم يُجَبْ ... وقد لانَ منه جانبٌ وخطابُ

فلمّا دعا والسيفُ صَلْتٌ بكفِّه ... له أسلموا واستسلموا وأنابوا[3]

إن الامتناع عن الشراء من المؤسسات الدنماركية امتناع عن شيء أباحه الله لمقتضى شرعي، وإن لم يكن ثمة مقتضىً، فإن الامتناع في نفسه مباح لا معصية ولا محذور فيه ألبتة. وبناء عليه؛ فإن للإمام أن يأمر الرعية بمثل هذا الامتناع لمصلحة يراها، ويكون واجباً على الرعية في مثل هذه الحال أن تطيعه؛ وذلك لقوله - عليه السلام -: «من

---

(١) صحيح مسلم، (١٦٤١).

(٢) ينظر: مختصر الفتاوى المصرية؛ طبعة دار ابن رجب الثالثة، بتحقيق الشوادفي، ٢/٣٢٨.

(٣) على البحر الطويل.

أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يُطِع الأميرَ فقد أطاعني، ومن يَعْصِ الأميرَ فقد عصاني»[1]. وعلى الرغم من أن مثل هذا الأمر لم يصدر عن الحكام؛ فإن قيام آحاد الناس بالدعوة إلى المقاطعة يبقى أمراً مباحاً؛ لأنه دعوة إلى أمر مباح، فإن كان أمره لمقتضىً شرعي أخذ الأمر حكم ذلك المقتضى.

وقد صدرت الفتاوى -بحمد الله- من علماء ودعاة وهيئات إسلامية لها وزنها في العالم الإسلامي، تبين أن هذا الواقع يقتضي المقاطعة، وأنها أقل ما يبذله المسلمون من واجب النصرة لنبيهم ﷺ.

ومع ذلك أقول: إن القول بجواز المقاطعة وجواز الدعوة إليها، ينبغي ألا يكون محل شك أو اعتراض بحال. وأما القول بوجوب المقاطعة؛ فهو راجع إلى اجتهاد العلماء، وإلى نظرهم إلى المسألة من باب المصالح والمفاسد، وإلى النظر إلى المقاطعة بوصفها نوعاً من أنواع إنكار المنكر. والذي يتأمل يجد أن مشروعيتها قد دلت عليها أدلة مختلفة؛ فمن ذلك:

١ - **الأمر بالجهاد بالمال:** كما في قوله - تعالى -: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١]، وقوله - عليه السلام -: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»[2]، والأمر للوجوب، وقد يُصرف إلى الاستحباب لقرينة. ومنعُ الكفار - المحاربين بأيديهم أو ألسنتهم - من الاستفادة مما يشترونه من المسلمين، وحرمانهم من أموال المسلمين التي يأخذونها مقابل ما يبيعونه لهم؛ نوع من أنواع هذا الجهاد المأمور به؛ هذا الجهاد الذي

---

(١) البخاري، ٢/٣٤٧ (٢٩٥٧)، مسلم، ٣/١٤٦٦ (١٨٣٥).

(٢) سبق تخريجه.

ينبغي ألا يكون منحصراً في صورة دون أخرى؛ كتجهيز الغزاة، وشراء السلاح، بل تدخل فيه كل الصور التي تحقق الغاية منه.

٢ - **الأمر بإتيان المستطاع**: كما في قوله - تعالى -: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ [**التغابن**: ١٦]، وقوله - سبحانه -: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ [**البقرة**: ٢٨٦]، وقوله - عليه السلام -: «وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[1]، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على هذه القاعدة المقررة. ولا شك أن الواجب على الأمة أن ترد العدوان الواقع عليها، فإن عجزت عن ذلك بالأنفس وقدرت عليه بالأموال؛ وجب عليها ذلك، فإن عجزت الأمة في حال التطاول على النبي ﷺ عن إقامة الحكم الشرعي على المتطاول ومَن ظاهَره؛ وجب عليها أن توصل إليهم العقوبة التي تقدر عليها. والمقاطعة الاقتصادية نوع من أنواع العقاب المقدور عليه.

٣ - **القيام بما أوجبه الله من إنكار المنكر**: وذلك بعدِّ هذه المقاطعة نوعاً من أنواع إنكار المنكر باليد، وقد بين ابن القيم - رحمه الله - أن إنكار المنكر على أربع درجات: «الأولى: أن يزول ويخلفه ضده، الثانية: أن يقل وإن لم يزل بجملته، الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله، الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه؛ فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة»[2]، والمقاطعة من الدرجتين المشروعتين.

٤ - **فعله ﷺ**: فمن ذلك أنه لما نقض بنو النضير العهدَ، وهموا بالغدر به وقتله - عليه السلام -؛ سار إليهم فتحصنوا في حصونهم، فحاصرهم ست ليال، وأمر بقطع

---

(١) البخاري، ٤/ ٣٦١ (٧٢٨٨)، مسلم، ٢/ ٩٧٥ (١٣٣٧).

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، ٤/ ٣٣٩، الطبعة الأولى لدار ابن الجوزي - السعودية (١٤٢٣).

نخلهم وتحريقه، فطلبوا أن يؤمِّنهم على دمائهم على أن يُجلَوا عن المدينة[1]. وكذلك حاصر النبي ﷺ ثقيفاً ثمانية عشر يوماً، وأمر بقطع أعنابهم، حتى ناشدوه أن يدعها لله وللرحم؛ ففعل. وهذا الأمر بالقطع والتحريق أمر بنوع من أنواع الحرب الاقتصادية؛ لما فيه من إتلاف أموالهم.

قال ابن القيم - رحمه الله -: «ومنها [أي فقه قصة ثقيف]: جواز قطع شجر الكفار؛ إذا كان ذلك يضعفهم ويغيظهم وهو أنكى فيهم»[2]، فإذا كان هذا جائزاً لهذا السبب، مع ما ثبت من النهي عن قطع الشجر أو حرقه في الحرب؛ فكيف بالامتناع عن البيع والشراء - المباحَيْن - لهذا السبب، ولما هو أكبر منه؛ وهو كف بأس الكافرين، وحجزهم عن غيهم وتطاولهم على سيد المرسلين ﷺ؟

٥ - **إقراره ﷺ لما فعله ثمامة بن أثال - رضي الله عنه -**؛ حيث ذهب يعتمر بعد إسلامه، «فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ»[3]، وجاء في قصته عند البيهقي أنه «انصرف إلى بلده ومنع الحمل إلى مكة حتى جَهِدت قريش، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ؛ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلي إليهم حمل الطعام، ففعل رسول الله ﷺ»[4].

٦ - **ومن الأدلة كذلك: عمل نبي الله يوسف بها**؛ فالمقاطعة لأجل تحقيق مصلحة

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٩١، وأصل القصة في الصحيحين.
(٢) زاد المعاد، ٣/ ٤٤٠، الطبعة الرابعة عشر لمؤسسة الرسالة (١٤٠٧).
(٣) البخاري، ٣/ ١٦٨ (٤٣٢٧)، مسلم، ٣/ ١٣٨٦ (١٧٦٤).
(٤) السنن الكبرى للبيهقي، ٩/ ١١٣ (١٨٠٣١)، الطبعة الثالثة لدار الكتب العلمية - بيروت (١٤٢٤).

شرعية طريقة نبوية. قال الله - تعالى -: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف: ٥٩ - ٦٠]، فتوعّدهم بالمقاطعة إن لم يفعلوا أمراً ليس بواجب عليهم، ولم يكن نبي الله - عليه السلام - آثماً في ذلك، يوم تهددهم بترك أمر يجوز له؛ فالله ما أوجب عليه أن يعاوضهم ببضاعتهم على الرغم من حاجتهم، فلئن ساغ له - عليه السلام - ذلك لأجل مصلحة قد تتعدد طرق الوصول إليها، وليست هي بأعظم من مصلحة الانتصار للأنبياء؛ أفلا يسوغ لأجل مصلحة الدين، والانتصار لخير المرسلين ﷺ، أن نقاطع المعتدين؟!

٧ - من المقرر في الشريعة الإسلامية: جواز هجر المسلم العاصي أو المبتدع - على الرغم من النهي عن هجر المسلم فوق ثلاث - ولا سيما إن كانت في الهجر مصلحة راجحة، بحيث يُرجى منه ترك المسلم معصيتَه وبدعتَه، أو على أقل تقدير: التضييق عليه بسببها؛ كونها نوعاً من الزجر والعقوبة؛ فمثل هذا الهجر مشروع. وأما إن كان شر هذا العاصي مستطيراً، وتأكدنا من كون الهجر يحقق المراد؛ فإن القول بالوجوب والحالة كذلك هو المتوجه، بل لو بدا لنا تماديه في غيه وعدم انزجار مثله، فكذلك قد يكون الهجر مشروعاً؛ حتى يسلم مخالطه ولا يتأذى به.

وهذا الهجر له صور متعددة؛ من بينها: ترك الشراء والبيع معه، فإن كان هذا في حال المسلم العاصي، فكيف بالكافر المعتدي على حرمات الأمة ومقدساتها؟ فكيف إن علمنا أو غلب على ظننا أن عدم مقاطعته ستزيده جرأة على الحرمات والمقدسات أو ستعينه على انتهاكها؟

٨ - **أما بالنسبة للمصالح والمفاسد**، فلا شك أن في المقاطعة كثيراً من المصالح المؤكدة أو المتوقعة؛ فمنها: الإعذار إلى الله - عز وجل - بأداء ما في الوسع، ومنها: تعزير رسول الله ﷺ ونصرته وتوقيره، وبيان أن محبته - عليه السلام - ليست مجرد كلمات نلوكها بألسنتنا، ومنها: الإغلاظ على الكفار المعتدين، والإضرار بهم؛ جزاء وفاقاً لما قدمته أيديهم، ومنها: ردع من تسوِّل له نفسه الإقدام على مثل هذا الفعل خوفاً على مصالحه الاقتصادية، ومنها: تحقيق الولاء والبراء، ومنها: إظهار عزة المسلمين وقوتهم. . . إلى غير ذلك.

أما المفاسد فتكاد تكون محصورة في تلف بعض البضائع في متاجر المسلمين جراء مقاطعتها، وتسريح بعض العاملين في الشركات الدنماركية المقامة في البلاد الإسلامية، فأما المفسدة الأولى: فيمكن تلافيها بتوقيت أمدٍ للمقاطعة، تنفد فيه البضائع المستوردة التي سبق استفادة القوم من أثمانها، فإن كانت الفائدة إنما تنالهم بعد توزيعها فلتفسد في أيديهم إذاً.

وأما من قد يسرَّحون من أعمالهم، أو تقفَل مؤسساتهم في بلاد المسلمين، فنحن ندعوهم إلى صنع هذا بأنفسهم قبل أن يحل بهم؛ تقديراً لمصلحة الأمة، ونخبرهم بأن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه؛ فإن هم أبوا وآثروا ما هم فيه، فلهم ذلك، فلا على المسلمين إن آثروا المصلحة العامة في مقابل مصلحة هؤلاء، مع أن هؤلاء حقوقهم في الأصل مكفولة وفق عقودهم مع تلك الشركات. ولو لم يكن؛ فمراعاة المصلحة الشرعية أولى، وقد تقدم حديث الأسير العقيلي وأخذ النبي ﷺ له بجريرة حلفائه من ثقيف.

وحيث كانت المصلحة راجحة، فإن القول بالاستحباب أمر مسلَّم. وأما القول

بالوجوب؛ فلما يترتب على ترك المقاطعة - التي تكاد تكون الوسيلة الوحيدة المتاحة للشعوب المسلمة - من فساد عريض؛ إذ يفلت الجاني بفعلته من كل عقوبة، مما يزيد من جرأته وجرأة غيره على مقدسات الأمة.

ويبقى أن يقال: إن هذه الأمة أمة مجاهدة مبتلاة: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، فكتب الله عليها الابتلاء والامتحان، ثم حضها على الصبر، ووعدها على الصبر بالنصر، فقال عز من قائل: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، فلا يَتَصَوَّرَنْ أحد أن الذب عن رسول الله ﷺ يكون بلا عناء أو جهد ومشقة؛ فإنْ قُدِّر وقوع بعض الضرر على بعض المسلمين، فهذا هين في جنب ما لاقاه - عليه السلام -؛ كي يتركنا على البيضاء النقية التي لا يزيغ عنها إلا هالك، وينبغي ألا يكون هذا حاجزاً لنا عن فعل ما أوجب الله - عز وجل -: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]!

■ **فوائد من أقوال العلماء:**

بناء على ما سبق وغيره، فقد كان لكثير من أهل العلم مواقف مؤيدة لمبدأ المقاطعة؛ كونها وسيلة من وسائل دفع الظلم، ومعاقبة الجاني، والاستبراء للدين والعِرض، وقد صدرت فتوى وقّع عليها جمع من كبار العلماء، نصها:

«الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن سب الكفار لنبينا ﷺ وتشويه صورته، نوع من المحاربة والمراغمة لنا نحن

المسلمين؛ فالذمي أو المعاهد ينتقض عهده بالسب، ويتحتم قتله، وكذلك المحارب إذا ظُفِرَ به؛ كما فعل النبي ﷺ بابن خطل وجاريتيه اللتين كانتا تغنيان بهجاء النبي ﷺ؛ فقد أمر ﷺ بقتلهم، مع أنه آمن سائرَ أهل مكة، ومع هـذا فلا يجوز للمسلمين أن يسكتوا عمن يجاهرهم بسب نبيهم، وهم يقدرون على الانتصار له ﷺ.

وقد حدث منذ سنتين أن إحدى الصحف الدانمركية نشرت صوراً للنبي ﷺ، فنالوا من شخصه وعرضه ﷺ، فاستنكر المسلمون ذلك سياسياً واقتصادياً، وإن لم يكن بالقدر الكافي واللائق. وأهم ما اتُّخذ ضد دولة الدانمرك: مقاطعة منتوجاتهم، فحصل بذلك قدر من عقوبة المعتدين، ولكن من المؤسف أن هذه المقاطعة لم تستمر؛ بسبب اعتذار بارد من كبرى الشركات الدانمركية، ولهذا عادت الصحيفة إلى نشر تلك الرسوم، بل نشرت الرسوم في عدد من الصحف الدانمركية.

ولهذا ندعو تجار المسلمين عامة، وتجار المملكة خاصة وكذلك عملاءَهم، إلى أن يعودوا لمقاطعة الشركات الدانمركية، وأن يصمموا على ذلك بقوة؛ محتسبين أجر ذلك من ربهم، ولا يمنعهم من ذلك ما قد يفوت من ربح. هذا، وللمنتوجات الدانمركية ما يغني عنها.

ومعلوم أن المقاطعة من وسائل الضغط الاقتصادي؛ فهي من أنواع عقوبة المعتدي، واعتداء الصحف الدانمركية يحمل تبعته مع الرسام وأصحاب الصحف دولتهم، فيجب عقابهم بما أمكن. وإذا كان من المعلوم أن ترك الشراء من سلعهم جائزٌ، فكيف يعترض بعض الناس علينا بمقاطعتهم عقوبة مع عدوانهم؟ وهذا ثمامة بن أثال - رضي الله عنه -، حلف ألا يصل أهل مكة من بُرٍّ اليمامة، حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ.

وعن المرُّوذِي أنه قال للإمام أحمد - رحمه الله -: أَمُرُّ بقرية فيها الجهمية لا زاد

معي، ترى أن أطوي (أي: أبيت طاوياً، أي: جائعاً) ؟ قال: نعم، ولا تشترِ منها شيئاً، وَتَوَقّ أن تبيعه . قال: بايعته ولا أعلم، قال: إن قدرت أن تسترد المبيع فافعل (انتهى). وهذا محمول من الإمام أحمد - رحمه الله - على أن هذا من هجر الجهمية؛ فترك الشراء منهم ومبايعتهم فيه عقوبة لهم على بدعتهم.

فإذاً، سابُّ النبي ﷺ ومن يحميه أحق بالعقاب، فعاقبوا أيها المسلمون دولة الدانمرك؛ بضرب اقتصادهم بمقاطعة شركاتهم، ولا تبالوا بمن يهون ذلك أو ينكر ذلك.

نسأل الله أن يوفق المسلمين لنصر الله ورسوله ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.
حرر في ٢٥/ ٢/ ١٤٢٩هـ».

والموقعون هم:

الشيخ . عبد الرحمن بن ناصر البراك .

الشيخ . عبد العزيز بن عبد الله الراجحي .

الشيخ . د . عبد الله بن حمود التويجري .

الشيخ . عبد الله بن ناصر السليمان .

الشيخ . د . عبد الرحمن الصالح المحمود .

الشيخ . د . ناصر بن سليمان العمر .

الشيخ . عبد الله بن عبد الرحمن المحيسن .

الشيخ. فهد بن سليمان القاضي.

الشيخ. د. حمد بن إبراهيم الحيدري.

الشيخ. د. عبد الله بن صالح البراك.

الشيخ. حمود بن صالح النجيدي.

الشيخ. د. عبد العزيز بن عبدالمحسن التركي.

الشيخ. د. ناصر بن يحيى الحنيني.

الشيخ. عبد الله بن عبد الرحمن الوطبان.

الشيخ. عبد العزيز بن سالم العمر.

أما الفتاوى الفردية فكثيرة؛ فمن ذلك[1]:

أولاً: الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله -: حيث قال في أحد أشرطته - تعليقاً على أحداث البوسنة والهرسك -: «موقفنا من إخواننا المسلمين في يوغوسلافيا: فالواجب علينا أن نبذل ما نقدر عليه؛ من الدعاء لهم بالنصر، وأن يكبت الله أعداءهم، وأن يهدي الله ولاة أمور المسلمين، حتى يقاطعوا كل من أعان من يقاتلهم على قتالهم. المسلمون لو قاطعوا كل أمة من النصارى تساعد الذين يحاربون إخواننا؛ لكان له أثر كبير، ولعرف النصارى وغير النصارى أن المسلمين قوة، وأنهم يد واحدة... ولكان الواجب أن تقطع العلاقات بين روسيا من كل وجه، ولو فعلوا ذلك لوقفت روسيا عند حدها، ولن يضرهم

(١) من رسالة (إنا كفيناك المستهزئين) لوليد نور، بتصرف.

شيئاً، ولكن مع الأسف أن الدول الإسلامية، وأعني بذلك رؤوس الدول الإسلامية، دعنا من الشعوب؛ الشعوب قد يكون عندها حماس وغيرة لكن ما تستطيع».
المصدر: الموقع الذهبي للإسلام.

ثانياً: الشيخ الألباني - رحمه الله -: حيث قال في أحد الأشرطة ردّاً على سؤال عن جواز أكل اللحم المستورَد من بلغاريا:

«أمر عجيب! . . . إذا كنتم في شك وفي ريب من أن هذه الذبائح تذبح على الطريقة الإسلامية، أو لا تذبح على الطريقة الإسلامية؛ فلستم في شك أنهم يذبحون المسلمين هناك؛ إخواننا الأتراك المقيمون منذ زمن طويل، يذبحونهم ذبح النعاج، فلو كان البلغاريون يذبحون هذه الذبائح التي نستوردها منهم ذبحاً شرعياً. فأنا حقيقة أقول: لا يجوز لنا أن نستوردها منهم؛ بل يجب علينا أن نقاطعهم؛ حتى يتراجعوا عن سفك دماء إخواننا المسلمين هناك، فسبحان الله! مات شعور الأخوّة التي وصفها الرسول - عليه السلام - بأنها كالجسد الواحد «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1] . . . هذه ذكرى والذكرى تنفع المؤمنين».
المصدر: سلسلة الهدى والنور، الشريط رقم ١٩٠.

ثالثاً: الشيخ ابن جبرين - حفظه الله -: حيث سئل:
لا يخفى عليكم ما يتعرض له إخواننا الفلسطينيون في الأرض المقدسة؛ من قتل واضطهاد من قبل العدو الصهيوني، ولا شك أن اليهود لم يمتلكوا ما امتلكوا من سلاح وعدة إلا بمؤازرة من الدول الكبرى، وعلى رأسها أمريكا . . . ويرى بعض الغيورين أنه

(١) البخاري، ٤/ ٩٣ (٦٠١١). مسلم، ٤/ ١٩٩٩ (٢٥٨٦).

ينبغي لنصرة المسلمين أن تقاطع منتجات إسرائيل وأمريكا، فهل يؤجر المسلم إذا قاطع تلك المنتجات بنية العداء للكافرين وإضعاف اقتصادهم؟ وما توجيهكم حفظكم الله؟

فجاء في الجواب:

«. . . فيجب على المسلمين مساعدة المجاهدين بكل ما يستطيعونه من القدرة، وعليهم أيضاً أن يفعلوا كل ما فيه إضعاف للكفار أعداء الدين، فلا يستعملونهم كعمال للأجرة؛ كُتَّاباً أو حُسَّاباً أو مهندسين أو خُدَّامًا، بأي نوع من الخدمة التي فيها إقرار لهم وتمكين لهم بحيث يكتسحون أموال المؤمنين ويعادون بها المسلمين، وهكذا أيضاً على المسلمين أن يقاطعوا جميع الكفار؛ بترك التعامل معهم، وبترك شراء منتجاتهم، سواء كانت نافعة؛ كالسيارات والملابس وغيرها، أو ضارة؛ كالدخان؛ بنية العداء للكفار، وإضعاف قوتهم، وترك ترويج بضائعهم؛ ففي ذلك إضعاف لاقتصادهم، مما يكون سبباً في ذلهم وإهانتهم، والله أعلم».

المصدر: الموقع الذهبي للإسلام.

رابعاً: الشيخ صالح اللحيدان: حيث سُئِل - حفظه الله -: هل يجب علينا نحن الذين في أوروبا، أن نقاطع البضائع الأمريكية، علماً بأنه لا يتوافر البديل؟ فجاء في الجواب:

«. . . إن مقاطعة المنتوجات الأمريكية والبريطانية والأسترالية مع النية الصادقة، نوعٌ من الجهاد في سبيل الله. وأما قول السائل بأنه لا بديل؛ فإن الشيء الذي لا بديل له هو ما كان الناس في ضرورة إليه، بعد أن يعرفوا معنى الضرورة، الناس كانوا ولا مصنوعات أمريكية، وكانوا يعيشون . . ».

من درس اللقاء المفتوح ٥ صفر ١٤٢٤هـ. المصدر: الموقع الذهبي للإسلام.

خامساً: الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الراجحي - حفظه الله -: حيث قال جواباً على سؤال عن مقاطعة دولة الدنمارك:

«لا شك أن المقاطعة - مقاطعة الدولتين الدنمارك والنرويج، الذين استهزؤوا بالرسول ﷺ - أقل ما يُفعل، وينبغي للمسلم أن يقاطعهم، ويحثّ الناس على مقاطعتهم، وأن ما فعلوه كفر وضلال، وأن هذا من الكفر الغليظ، وأنهم بهذا قد نقضوا العهد؛ لأن من سب الرسول ﷺ وسب الله وسب الدين، ينتقض عهده. . . . والإنسان يفعل ما يستطيعه، ومنه: بيان هذا الحكم للناس، وعدم التواصل معهم بأي نوع من أنواع المواصلة».

الوقفة الثامنة عشرة

حقوق النبي ﷺ على أمته

إن حقوق النبي ﷺ على أمته في حياته وبعد مماته كثيرة جدّاً، حقوق قد أوجبها له من اصطفاه واختاره على العالمين؛ ليكون خاتم المرسلين، وتفصيل هذه الحقوق قد يحتاج لمؤلف منفرد، ولكننا نجملها في نقاط رئيسة؛ هي[1]:

أولاً: وجوب الإيمان به وتصديقه - عليه الصلاة والسلام - فيما جاء به:

فالإيمان بالنبي محمد ﷺ واجب متعين لا يتم إيمان أي إنسان إلا به، ولا يصح إسلامه إلا معه، وإلا كان كافراً مستحقّاً للخلود في النار. قال - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقال - عز من قائل -: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ [الفتح: ١٣]، وقال - عليه السلام -: «أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله...»[2] الحديث، وفي حديث جبريل المشهور: قال - عليه السلام -: «الإسلام أن تشهد أن لا

---

(١) مستفاد من: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض.

(٢) البخاري، ١/ ٢٤ (٢٥). مسلم، ١/ ٥٣ (٢٢).

إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ. . .»[1] وقال - عليه السلام -: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلتُ به؛ إلا كان من أصحاب النار»[2].

ثانياً: وجوب محبته ﷺ:

ودليل ذلك قول الله - تعالى -: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]، فقرَن - سبحانه وتعالى - محبةَ نبيه ﷺ بمحبته؛ إعلاماً بوجوبها، قال القاضي عياض - رحمه الله -: «. . . فكفى بهذا حَضّاً وتنبيهاً، ودلالة وحجة على إلزام محبته، ووجوب فرضها، وعظم خطرها، واستحقاقه لها ﷺ؛ إذ قرَّع - تعالى - مَنْ كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وأوعدهم بقوله - تعالى -: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾، ثم فسَّقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله»[3].

يقول ابن تيمية - رحمه الله -: «فانظر إلى هذا الوعيد الشديد الذي قد توعد الله به من كان أهله وماله أحبَّ إليه من الله ورسوله ﷺ وجهادٍ في سبيله! فعُلِم أنه يجب أن يكون الله ورسوله ﷺ والجهاد في سبيله، أحبَّ إلى المؤمن من الأهل والمال والمساكن والمتاجر والأصحاب والإخوان، وإلا لم يكن مؤمناً حقّاً»[4].

---

(١) مسلم، ١/ ٣٦ (٨).

(٢) مسلم، ١/ ١٣٤ (١٥٣).

(٣) الشفا، ٢/ ١٨.

(٤) مجموع الفتاوى، ١٠/ ٧٥٠ - ٧٥١.

ومن الأدلة أيضاً: قوله - تعالى -: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، قال الطبري - رحمه الله -: «يقول: أحق بالمؤمنين به (مِنْ أَنْفُسِهِمْ)، أن يحكم فيهم بما يشاء من حكم، فيجوز ذلك عليهم»[١]، أي: يسري عليهم ويَلزَمهم، قال ابن القيم - رحمه الله -: «وهو دليل على أن من لم يكن الرسول ﷺ أولى به من نفسه، فليس من المؤمنين. وهذه الأولوية تتضمن أموراً؛ منها: أن يكون أحب إلى العبد من نفسه؛ لأن الأولوية أصلها الحب، ونفس العبد أحب له من غيره، ومع هذا يجب أن يكون الرسول ﷺ أولى به منها، وأحب إليه منها، فبذلك يحصل له اسم الإيمان»[٢].

ومن الأدلة: قوله - عليه السلام -: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[٣]، وقد أورده الإمام مسلم - رحمه الله - تحت باب: «وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبة».

ومن الأدلة كذلك: قول عمر الفاروق - رضي الله عنه -: «يا رسول الله، لأَنتَ أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي»، فقال النبي ﷺ: «لا، والذي نفسي بيده؛ حتى أكون أحب إليك من نفسك». فقال له عمر: «فإنه الآن - واللهِ - لأنتَ أحب إليّ من نفسي»، فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر»»[٤].

(١) تفسير الطبري، ١٩/ ١٤ - ١٥.

(٢) الرسالة التبوكية، ١/ ٣١، طبعة دار عالم الفوائد، بتحقيق محمد عزير شمس، من دون تاريخ أو رقم طبعة.

(٣) البخاري، ١/ ٢٢ (١٥)، مسلم، ١/ ٦٧ (٤٤).

(٤) البخاري، ٤/ ٢١٦ (٦٦٣٢).

فدلَّ ما سبق على أن أصل محبة رسول الله ﷺ شرط في صحة الإيمان، وأن هذه المحبة واجبة، وأن رجحان محبته ﷺ على محبة من سواه من الخلق شرط في كمال الإيمان الواجب.

ولئن تضافرت أدلة الكتاب والسنة على وجوب محبة النبي ﷺ؛ فإن لهذا الحكم شاهداً من العقل الصحيح يؤيده؛ فالإنسان إنما يحب غيره لما يأتيه منه من أنواع النفع المختلفة، دنيوية كانت أو أخروية؛ قال الحافظ - رحمه الله -: «فإذا تأمل النفع الحاصل له من جهة الرسول ﷺ، الذي أخرجه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان - إما بالمباشرة وإما بالسبب - علِم أنه سبب بقاء نفسه البقاء الأبدي في النعيم السرمدي، وعلم أن نفعه بذلك أعظم من جميع وجوه الانتفاعات، فاستحق لذلك أن يكون حظه من محبته أوفر من غيره؛ لأن النفع الذي يثير المحبة حاصل منه أكثر من غيره»[(١)].

▪ فائدة: علامة محبته ﷺ:

قال القاضي عياض - رحمه الله -: «اعلم أن من أحب شيئاً آثره وآثر موافقته، وإلا لم يكن صادقاً في حبه وكان مدعياً؛ فالصادق في حب النبي ﷺ مَن تظهر علامة ذلك عليه، وأولها: الاقتداء به، واستعمال سنته، واتباع أقواله وأفعاله، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه في عسره ويسره، ومنشطه ومكرهه؛ وشاهد هذا قوله - تعالى -: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وإيثار ما شرعه وحض عليه على هوى نفسه وموافقة شهوته؛ قال الله - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا

---

(١) فتح الباري، ١/٧٦.

أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، وإسخاط العباد في رضى الله - تعالى - . . . قال أنس بن مالك - رضي الله عنه -: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بني، إن قدرتَ أن تصبح وتمسي ليس في قلبك غش لأحد؛ فافعل» ثم قال لي: «يا بني، وذلك من سنتي، ومن أحيى سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة»[1]. . . ومن علامات محبة النبي ﷺ: كثرة ذكره له؛ فمن أحب شيئاً أكثر ذكره، ومنها: كثرة شوقه إلى لقائه؛ فكل حبيب يحب لقاء حبيبه، وفي حديث الأشعريين عند قدومهم المدينة: أنهم كانوا يرتجزون:

«غداً نلقى الأحبة.. محمداً وصحبه».

ومن علاماته - مع كثرة ذكره -: تعظيمه له، وتوقيره عند ذكره، وإظهار الخشوع والانكسار مع سماع اسمه. . . ومنها: محبته لمن أحب النبيُّ ﷺ ومن هو بسببه من آل بيته وصحابته من المهاجرين والأنصار، وعداوة من عاداهم، وبغض من أبغضَهم وسبَّهم؛ فمن أحب شيئاً أحب من يحب. . . ومنها: بغض من أبغض اللهَ ورسولَه ﷺ، ومعاداة من عاداه، ومجانبة من خالف سنته وابتدع في دينه، واستثقاله كل أمر يخالف شريعته. . . ومنها: أن يحب القرآن الذي أتى به ﷺ، وهدى به واهتدى، وتخلق به. . . ومن علامات حبه للنبي ﷺ: شفقته على أمته، ونصحه لهم، وسعيه في مصالحهم، ورفع المضار عنهم، كما كان ﷺ بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، ومن علامة تمام محبته: زهد مدعيها في الدنيا»[2].

---

(١) سنن الترمذي، ٥/ ٤٦ (٢٦٧٨)، وضعفه الألباني.

(٢) الشفا، ٢/ ٢٤ - ٢٨.

ثالثاً: وجوب طاعته - عليه السلام -:

فإذا وجب الإيمان به وتصديقه فيما جاء به؛ وجبت طاعته؛ لأن ذلك مما أتى به، قال الله - تعالى -: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، وقال: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]؛ فجعل - تعالى - طاعة رسوله ﷺ طاعة له؛ لأنه - عليه السلام - مبلِّغ عن ربه، ولا ينطق عن الهوى، وقرن طاعته بطاعته، ووعد على ذلك بجزيل الثواب، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب، وأوجب امتثال أمره واجتناب نهيه.

رابعاً: وجوب اتباعه وامتثال سنته والاقتداء بهديه:

فقد قال الله - تعالى -: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال - سبحانه -: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وأما مخالفة أمره وتبديل سنته ﷺ؛ فضلال وبدعة، مُتوعَّد من الله عليه بالخذلان والعذاب؛ قال الله - تعالى -: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] وقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]،

وقال - عليه السلام - : « . . . فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»[1]، زاد النسائي - رحمه الله - : «وكل ضلالة في النار»[2]، قال الألباني - رحمه الله - : «وسندها صحيح»[3].

خامسا: وجوب تعظيمه وتوقيره:

قال الله - تعالى - : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفتح: ٨ - ٩]، أي: تعظموه وتجلّوه وتحترموه، وقال- جل وعلا - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١]، قال ابن كثير - رحمه الله - : «أي: لا تتسرعوا في الأشياء بين يديه، أي: قبله؛ بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور»[4]، وقال - تعالى - : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]، وهذا كما هو في حياته ﷺ، فكــذلك بعد ممــاته، قال ابن كثير - رحمه الله - : « نهى الله - عز وجل - عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله ﷺ، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : أنه سمع صَوت رجلين في مسجد رسول الله ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف. فقــال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً، وقال العلماء: يكره

(١) مسلم، ٢/ ٥٩٢ (٨٦٧).
(٢) سنن النسائي، ٣/ ٢١٠ (١٥٧٧).
(٣) إرواء الغليل، ٣/ ٧٣ (٦٠٨)، الطبعة الأولى للمكتب الإسلامي (١٣٩٩).
(٤) تفسير ابن كثير، ١٣/ ١٣٦.

رفع الصوت عند قبره، كما كان يكره في حياته؛ لأنه محترم حيّاً وفي قبره، صلوات الله وسلامه عليه دائماً»[1]، ثم قال - تعالى - في تتمة الآية: ﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، قال ابن كثير - رحمه الله -: «نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطَبه ممن عداه؛ بل يخاطَب بسكينة ووقار وتعظيم»[2].

ومن قدّم قوله ورأيه على قول رسول الله ﷺ فكأنما قدم بين يديه، وجهر له بالقول، ورفع صوته فوق صوته، عليه السلام. قال ابن القيم - رحمه الله -: «ومن الأدب معه[3]: أن لا تُرفع الأصوات فوق صوته؛ فإنه سبب لحبوط الأعمال، فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به؟ أترى ذلك موجباً لقبول الأعمال، ورفع الصوت فوق صوته موجباً لحبوطها؟!»[4]، وقال - تعالى -: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، قال القاضي عياض: «لا تنادوه باسمه نداء بعضكم لبعض، ولكن عظموه ووقروه، ونادوه بأشرف ما يحب أن ينادى به: يا رسول الله، يا نبي الله...»[5]، وهذا أحد القولين في تفسير الآية، كما بين رحمه الله.

(١) تفسير ابن كثير، ١٣/ ١٤٣.
(٢) السابق.
(٣) وهو أدب واجب بلا شك؛ لأن تركه قد يكون سبباً في حبوط العمل.
(٤) مدارج السالكين، ٢/ ٣٨٩، الطبعة الثانية لدار الكتاب العربي - بيروت (١٣٩٣).
(٥) الشفا، ٢/ ٣٦.

سادساً: وجوب نصرته والدفاع عنه:

إن نصر رسول الله ﷺ واجب قديم مفروض قبل بعثته عليه الصلاة والسلام، قال الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وقد قرن الله نصرته - عليه السلام - بالإيمان وخصها بالذكر بعده، فقال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فالفلاح كل الفلاح في الإيمان به ﷺ المقتضي تعزيره ونصره واتباع ما جاء به، وقد قال الله - تعالى -، بعد أن حرض المؤمنين على النفرة مع رسول الله ﷺ في سبيل الله، وحذرهم من مغبة التثاقل والامتناع عن ذلك: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٤٠]، قال الطبري - رحمه الله -: «وهذا إعلامٌ من الله أصحابَ رسوله ﷺ، أنّه المتوكّل بنصر رسوله ﷺ على أعداء دينه، وإظهاره عليهم دونهم، أعانوه أو لم يعينوه، وتذكيرٌ منه لهم فعلَ ذلك به، وهو من العدد في قلة، والعدوُّ في كثرة، فكيف به وهو من العدد في كثرة، والعدو في قلة؟ يقول لهم - جل ثناؤه -: إلا تنفروا - أيها المؤمنون - مع رسولي إذا استنفركم فتنصروه؛ فالله ناصره، ومعينه على عدوّه، ومغنيه عنكم وعن معونتكم ونصرتكم؛ كما نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله من قريش من وطنه وداره ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾»[1].

---

(١) تفسير الطبري، ١١/ ٤٦٣.

وهذا الواجب، إن شئتَ جعلته واجباً مستقلاً، أو جعلته أثراً من آثار ما سبق أو لازماً من لوازمه؛ فمن آمن به - عليه السلام - نبياً تجب طاعته، ومن وقر حبه وتوقيره في قلبه، كان من آثار ذلك ولوازمه: أن ينصره ويذب عنه، ويفديه بنفسه وأهله وماله، كما رُوي عن زيد بن الدَّثِنة - وقيل عن خُبيب بن عدي رضي الله عنهما -: أنه لما أراد المشركون قتلَه بمكة بعد أن أسروه، قال له أبو سفيان: «أنشدك الله يا زيد! أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه؛ تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي»(١).

قال القاضي عياض - رحمه الله -: «ومن الإشفاق في محبته: نصرة سنته، والذب عن شريعته، وتمني حضور حياته، فيبذل نفسه وماله دونه»(٢). وبهذه النصرة التي هذا وصفها؛ نال الأنصار - رضي الله عنهم - ما نالوه من شرف وفضل، فقال لهم النبي ﷺ: «ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والإبل، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟ الأنصار شِعار والناس دِثار، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار. ولو سلك الناس وادياً وشِعباً؛ لسلكت وادي الأنصار وشِعبهم»(٣).

قال الحافظ - رحمه الله -: «ومن علامة الحب المذكور: أن يُعرَض على المرء أن لو خُيِّر بين فَقْد غرض من أغراضه أو فقد رؤية النبي ﷺ، أن لو كانت ممكنة؟ فإن كان فقدها - أن لو كانت ممكنة - أشد عليه من فقد شيء من أغراضه؛ فقد اتصف بالأَحَبِّيَّة المذكورة، ومن لا فلا، وليس ذلك محصوراً في الوجود والفقد؛ بل يأتي مثله في نصرة

(١) سيرة ابن هشام، ٢/ ١٧٢.

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ١/ ٢٨٠ - ٢٨١، الطبعة الأولى لدار الوفاء - المنصورة (١٤١٩).

(٣) البخاري، ٣/ ١٥٨ (٤٣٣١)، مسلم، ٢/ ٧٣٨ (١٠٦١).

سنته، والذب عن شريعته، وقمع مخالفيها، ويدخل فيه باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[1].

وأي منكر أعظم في حقه - عليه السلام - من أن يُسَب أو يُشتَم أو يُنتقَص منه - بأبي هو وأمي - ويقف المسلمون مكتوفي الأيدي ؟ وإن لم ينتصر له مَنْ يحبه في مثل هذا؛ فمتى ؟! ولهذا قال مالك - رحمه الله -: «ما بقاء الأمة بعد شتم نبيها ؟»[2].

وهذه النصرة تكون بالنفس والمال واللسان، وبكل ما يتاح للمرء، وينبغي أن يستفرغ فيها المرء وسعه؛ فإن فعل فقد استبرأ لدينه، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

سابعاً: الصلاة والسلام عليه ﷺ:

قال - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وقال - عليه السلام -: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ؛ فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً»[3]، وقال: «إن البخيل من ذُكرتُ عنده فلم يُصلِّ علي»[4]، والأحاديث في الحض على الصلاة عليه - عليه السلام - وبيان فضلها كثيرة، وهي واجبة في حالات، مستحبة في أخرى، وللعلماء في تفصيل ذلك أقوال كثيرة: قال القرطبي - رحمه الله -: «وقد

---

(١) فتح الباري، ١/ ٧٦.

(٢) الشفا، ٢/ ٢٢٣.

(٣) مسلم، ١/ ٢٨٨ (٣٨٤).

(٤) المستدرك، ١/ ٧٣٤ (٢٠١٥). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد؛ ، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

اختلفوا في حال وجوبها؛ فمنهم من أوجبها كلما جرى ذكره، . . . ومنهم من قال: تجب في كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره، . . . ومنهم من أوجبها في العمر، . . . والذي يقتضيه الاحتياط: الصلاة عند كل ذكر؛ لما ورد من الأخبار في ذلك»[1]، ولا شك أن هذا هو الأولى.

(١) تفسير القرطبي، ١٧/ ٢١٥ - ٢١٦.

الوقفة التاسعة عشرة

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾

....

إنه مما ينبغي أن يكون واضحاً: أن ما سبق ذكره من خطوات في مواجهة الطعن والاستهزاء؛ إنما يتعلق بالتطاول على مقدساتنا على وجه العموم، وإلا فإن الطعن والاستهزاء بالنبي ﷺ ليس كأي طعن واستهزاء؛ إذ له حكم مغاير لحكم الطعن في غيره من مقدساتنا، كما أنه في أغلبه إنما يطرح لكون الأمة الآن في زمن استضعاف، وما يُسعى لتحقيقه في زمن الاستضعاف يبقى محكوماً بواقع الاستضعاف، ومغايراً لما يجب تحقيقه والقيام به في زمن التمكين؛ حيث يكون في الاكتفاء بما ذُكر نوعُ تفريطٍ تأثم الأمة بالاكتفاء به، قال ابن تيمية - رحمه الله - في كتابه الحافل (الصارم المسلول على شاتم الرسول): «. . . كل مؤمن مستضعَف لا يمكنه نصر الله ورسوله ﷺ بيده ولا بلسانه؛ فينتصر بما يقدر عليه من القلب ونحوه»[1].

والشأن في هذا كالشأن في إنكار أي منكر، قال ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، ومن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان»[2].

وحتى لا تختلط الأمور، ويضيع الحكم الشرعي تحت وطأة واقع الاستضعاف -

---

(١) الصارم المسلول، ٢/ ٤١٣، الطبعة الأولى لرمادي للنشر - السعودية (١٤١٧).

(٢) صحيح مسلم، ١/ ٦٩ (٤٩).

ومع أنه سبق التنبيه إليه -؛ فإننا نعرض لهذا الحكم كما نص عليه أهل العلم، والأمر كما قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «وإنما المقصد هنا بيان الحكم الشرعي الذي يفتي به المفتي، ويقضي به القاضي، ويجب على كل واحد من الأئمة والأمة: القيام بما أمكن منه»(١).

إنه من المقرر في شريعتنا الغراء: أن إيذاء المؤمنين الطيبين بغير ما اكتسبوا بهتان وإثم مبين؛ قال - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨]، وإيذاء الخاصة منهم أشد إثماً، ولهذا جاء في أشرف أحاديث الأولياء: «من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب»(٢).

وإيذاء أهل العلم والدعاة منهم أشد حرمة، ولهذا قال الحافظ ابن عساكر - رحمه الله -: «اعلم يا أخي - وفقنا الله وإياك لمرضاته، [وجعلنا] ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته - أن لحوم العلماء - رحمة الله عليهم - مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة؛ لأن الوقيعة فيهم بما هم منه براء أمرُه عظيم، والتناول لأعراضهم بالزور والافتراء مرتع وخيم، والاختلاق على من اختاره الله منهم لنعش العلم خُلُق ذميم»(٣)، وقال في موضع آخر: «وكل من أطلق لسانه في العلماء بالثلب، بلاه الله - عز وجل - قبل موته بموت القلب»(٤).

وقد رتب الإسلام عقوبات محددة في الدنيا على من يتطاول على أعراض عامة

---

(١) الصارم المسلول، ١/ ٩.

(٢) البخاري، ٤/ ١٩٢ (٦٥٠٢).

(٣) تبيين كذب المفتري، ١/ ٢٩، الطبعة الثالثة لدار الكتاب العربي - بيروت (١٤٠٤).

(٤) السابق ١/ ٤٢٥.

المسلمين والمسلمات، ويرميهم بما هم منه براء، والكلام عن ذلك مبسوط في محله من كتب الفقه.

أما عقوبة الطاعن في رسول الله ﷺ، فإنه: من سبَّ النبيَّ ﷺ مسلماً كان أو كافراً، وجب قتله.

أما المسلم، فقد انعقد الإجماع على قتله؛ قال ابن المنذر - رحمه الله -: «وأجمعوا على أن من سب النبي ﷺ له القتل»[1]، وقد نقل هذا الإجماع غير واحد من الأئمة. قال ابن تيمية - رحمه الله -: «وقال الإمام إسحاق بن راهويه أحد الأئمة الأعلام: أجمع المسلمون على أن من سب رسول الله ﷺ. . .، أنه كافر بذلك، وإن كان مُقرّاً بكل ما أنزل الله.

قال الخطابي: لا أعلم أحداً من المسلمين اختلف في وجوب قتله.

وقال محمد بن سحنون: أجمع العلماء على أن شاتم النبي ﷺ والمتنقص له كافر، والوعيد جارٍ عليه بعذاب الله له، وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفَر»[2].

وأما الساب الكافر فحكمه القتل كذلك عند جمهور العلماء. قال ابن تيمية - رحمه الله -: «وإن كان ذمياً فإنه يقتل أيضاً في مذهب مالك وأهل المدينة. . . وهو مذهب أحمد وفقهاء الحديث. . . وأما الشافعي، فالمنصوص عنه نفسه: أن عهده ينتقض بسب النبي ﷺ وأنه يقتل، هكذا حكاه ابن المنذر والخطابي وغيرهما»[3].

---

(١) الإجماع، كتاب الردة، ١/ ١٧٤، الطبعة الثانية لمكتبة الفرقان - الإمارات (١٤٢٠).
(٢) الصارم المسلول، ٢/ ١٥ - ١٦.
(٣) الصارم المسلول، ٢/ ١٦ - ٢٦.

وفيما يلي بعضٌ من أقوالهم - رحمهم الله - في ذلك:

أولاً: الإمام مالك:

قال - رحمه الله -: «من سبَّ رسولَ الله ﷺ، أو شتمه، أو عابه، أو تنقصه؛ قُتل؛ مسلماً كان أو كافراً، ولا يُستتاب.

وفي كتاب محمد: أخبرنا أصحاب مالك أنه قال: من سبّ النبي ﷺ، أو غيره من النبيين، من مسلم أو كافر، قُتل ولم يُستتب»[1].

ثانياً: الإمام الشافعي:

ذكر - رحمه الله - في «الأم» الشروط التي يصالح عليها أميرُ المؤمنين أهلَ الجزية، فذكر من ذلك أموراً، ثم قال: «وعلى أن أحداً منكم إن ذكر محمداً ﷺ، أو كتاب الله - عز وجل -، أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به؛ فقد برئت منه ذمة الله، ثم ذمة أمير المؤمنين وجميع المسلمين، ونقض ما أُعطي عليه الأمان، وحلّ لأمير المؤمنين مالُه ودمُه، كما تحل أموالُ أهل الحرب ودماؤهم»[2].

ثالثاً: الإمام أحمد:

قال ابن تيمية - رحمه الله -: «وقد نص أحمد على ذلك في مواضع متعددة؛ قال حنبل: سمعت أبا عبد الله يقول: كل من شتم النبي ﷺ أو تنقصه - مسلماً كان أو كافراً - فعليه القتل، وأرى أن يقتل ولا يستتاب. قال: وسمعت أبا عبد الله يقول:

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ٢/ ٢١٦.
(٢) الأم، ٥/ ٤٧٢، الطبعة الأولى لدار الوفاء - المنصورة (١٤٢٢).

كل من نقض العهد وأحدث في الإسلام حدثاً مثل هذا رأيت عليه القتل، ليس على هذا أُعطوا العهد والذمة.

وكذلك قال أبو الصفراء: سألت أبا عبد الله عن رجل من أهل الذمة، شتم النبي ﷺ، ماذا عليه؟ قال: إذا قامت البينة عليه؛ يُقتل من شتم النبي ﷺ مسلماً كان أو كافراً» رواهما الخلال.

وقال في رواية عبد الله وأبي طالب، وقد سئل عن شتم النبي ﷺ، قال: يقتل! قيل له: فيه أحاديث؟ قال: نعم! أحاديث، منها: حديث الأعمى الذي قتل المرأة، قال: سمعتها تشتم النبي ﷺ، وحديث حصين: أن ابن عمر قال: من شتم النبي ﷺ قتل، وكان عمر بن عبد العزيز يقول؛ يقتل: وذلك أنه مَنْ شتم النبي ﷺ فهو مرتد عن الإسلام، ولا يشتم مسلم النبي ﷺ. زاد عبد الله: سألت أبي عمَّن شتم النبي ﷺ، يستتاب؟ قال: قد وجب عليه القتل ولا يُستتاب؛ لأن خالد بن الوليد قتل رجلاً شتم النبي ﷺ ولم يستتبه. رواهما أبو بكر في (الشافي).

وفي رواية أبي طالب: سئل أحمد عمّن شتم النبي ﷺ، قال: يقتل؛ قد نقض العهد. وقال حرب: سألت أحمد عن رجل من أهل الذمة شتم النبي ﷺ؛ قال: يقتل إذا شتم النبي ﷺ. رواهما الخلال.

وقد نص على هذا في غير هذه الجوابات، فأقواله كلها نص في وجوب قتله، وفي أنه قد نقض العهد، وليس عنه في هذا اختلاف»[1].

وأما أبو حنيفة وأصحابه - رحمهم الله - فقد ذهبوا إلى أنه لا يقتل؛ وعللوا ذلك

(١) الصارم المسلول، ٢/١٦ - ١٩.

بأن ما هو عليه من الكفر أعظم، ومع ذلك فقد «أفتى أكثرهم بقتل من أكثر من سب النبي ﷺ من أهل الذمة، وإن أسلم بعد أخذه، وقالوا: يُقتل سياسةً»[1].

فمن قال لا يقتل بمجرد السب؛ نظر إلى السبِّ على أنه كفُر دون الكفر بالله، عز وجل. والصحيح أنه يقتل لا لكونه أتى كفراً فحسب؛ بل لأنه سب النبي ﷺ، وحقُّ سابِّه - عليه السلام - أن يقتل، كما دلت الأدلة.

هذا والأدلة على قتل ساب النبي ﷺ - مسلماً كان أو كافراً - كثيرة، قال ابن تيمية - رحمه الله -: «والدلائل على انتقاض عهد الذمي بسبِّ الله أو كتابه أو دينه أو رسوله ﷺ، ووجوب قتله، وقتل المسلم إذا أتى ذلك: الكتاب، والسنة، وإجماع الصحابة والتابعين، والاعتبار»[2]، وسوف نكتفي - بعد ما نقلناه من كلام الأئمة - بعرض بعض الأدلة من الكتاب والسنة، ويمكن للاستزادة الرجوع لصارم ابن تيمية، ولشفا القاضي عياض، رحمهما الله.

فمن أدلة الكتاب:

قوله - تعالى -: **﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** [المائدة: ٣٣].

وقوله - جل وعلا -: **﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ**

(١) الصارم المسلول، ٢/ ٣٢.
(٢) السابق.

آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٢ - ١٣].

والطعن في النبي ﷺ من أعظم السعي في الفساد، ومن أعظم الحرب والمشاقة له - عليه السلام - ولله - سبحانه وتعالى - الذي اصطفاه على العالمين.

ومنها قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

واللعن هو الإبعاد من كل خير، وقتل الطاعن داخل فيه.

ومنها قوله - عز من قائل -: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢].

وقوله - سبحانه -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢٠ - ٢١].

وقوله - سبحانه -: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦].

إلى غير ذلك من الآيات، التي استنبط منها أهل العلم هذا الحكم، وطُرق استدلالهم مبسوطة في مظانها.

وأما من السنة:

فقد قال القاضي عياض - رحمه الله -: «وفي الحديث الصحيح: أمر النبي ﷺ بقتل كعب بن الأشرف، وقوله: «مَنْ لكعب بن الأشرف؟ فإنه يؤذي الله ورسوله»[1]، ووجه إليه من قتله غيلة من دون دعوة، بخلاف غيره من المشركين، وعلل ذلك بأذاه له، فدل أن قتله إياه لغير الإشراك بل للأذى.

وكذلك قَتَلَ أبا رافع، قال البراء[2]: وكان يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه[3].

وكذلك أمره يوم الفتح بقتل ابن خطل[4] وجاريتيه اللتين كانتا تغنيان بسبه ﷺ[5].

وفي حديث آخر: أن رجلاً كان يسبه ﷺ فقال: «من يكفيني عدوي؟»، فقال خالد: أنا، فبعثه النبي ﷺ فقتله[6].

... وذكر عبد الرزاق أن النبي ﷺ سبّه رجل؛ فقال: «من يكفيني عدوي؟»، فقال الزبير: أنا، فبارزه فقتله الزبير.[7]

وروى أيضاً: أن امرأة كانت تسبه ﷺ، فقال: «من يكفيني عدوتي؟»، فخرج إليها

(١) البخاري، ٣/ ٩٩ (٤٠٣٧). مسلم، ٣/ ١٤٢٥ (١٤٢٥).

(٢) هو راوي الحديث الصحابي الجليل البراء بن عازب، رضي الله عنه.

(٣) البخاري، ٣/ ١٠٠ (٤٠٣٩).

(٤) البخاري، ٢/ ١٦ (١٨٤٦)، مسلم، ٢/ ٩٨٩ (١٣٥٧).

(٥) مغازي الواقدي، ١/ ٨٥٩.

(٦) رواه الأموي في مغازيه، كما في الصارم، ٢/ ٢٨٧.

(٧) مصنف عبد الرزاق، ٥/ ٣٠٧ (٩٧٠٤)، الطبعة الأولى للمجلس العلمي، باكستان (١٣٩٢).

خالد بن الوليد فقتلها[1]، وروى أن رجلاً كذب على النبي ﷺ، فبعث عليّاً والزبير إليه ليقتلاه[2].

وروى ابن قانع أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، سمعت أبي يقول فيك قولاً قبيحاً فقتلته؛ فلم يشق ذلك على النبي ﷺ[3]... وعن ابن عباس: أن أعمى كانت له أم ولد تسبّ النبي ﷺ، فيزجرها فلا تنزجر، فلما كانت ذات ليلة جعلت تقع في النبي ﷺ وتشتمه، فقتلها وأعلم النبي ﷺ بذلك، فأهدر دمها[4]»[5].

فائدة: الأمور الداخلة في حكم السب:

قال القاضي عياض - رحمه الله -: «اعلم - وفقنا الله وإياك - أن جميع من سب النبي ﷺ، أو عابه، أو ألحق به نقصاً في نفسه، أو نسَبه، أو دينه، أو خصلة من خصاله، أو عرَّض به، أو شبهه بشيء على طريق السب له، أو الإزراء عليه، أو التصغير لشأنه، أو الغض منه والعيب له؛ فهو سابٌّ له، والحكم فيه حكم الساب، يُقتل كما نبينه... وكذلك من لعنه، أو دعا عليه، أو تمنى مضرة له، أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم، أو عبث في جهته العزيزة بسخف من الكلام، وهجر ومنكر من القول وزور، أو عيره بشيء مما جرى من البلاء والمحنة عليه، أو غمصه ببعض العوارض

(١) السابق، (٩٧٠٥).
(٢) السابق، ٥/ ٣٠٨ (٩٧٠٧).
(٣) معجم الصحابة لابن قانع، ٣/ ٤٦ (٩٩٠)، طبعة مكتبة الغرباء الأثرية، بتحقيق صلاح بن سالم المصراتي، من دون رقم طبعة أو تاريخ.
(٤) المستدرك، ٤/ ٣٩٤ (٨٠٤٤)، قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح.
(٥) الشفا، ٢/ ٢٢١ - ٢٢٢.

البشرية الجائزة والمعهودة لديه»[1].

قال: «وروى ابن وهب عن مالك: من قال: إن رداء النبي ﷺ - ويروى: زِرَّ النبي ﷺ - وسِخٌ، أراد به عيبَه، قُتل.

وقال بعض علمائنا: أجمع العلماء على أن من دعا على نبي من الأنبياء بالويل أو بشيء من المكروه، أنه يقتل بلا استتابة.

وأفتى أبو الحسن القابسي فيمن قال في النبي ﷺ: «الجَمال، يتيم أبي طالب» بالقتل.

وأفتى أبو محمد بن أبي زيد بقتل رجلٍ سمع قوماً يتذاكرون صفة النبي ﷺ؛ إذ مر بهم رجل قبيح الوجه واللحية، فقال لهم: «تريدون تعرفون صفته؟ هي في صفة هذا المار في خَلْقه ولحيته»، قال: ولا تُقبل توبته، وقد كذب لعنه الله، وليس يخرج من قلبٍ سليم الإيمان.

وقال أحمد بن أبي سليمان صاحب سحنون: من قال: إن النبي ﷺ كان أسود، يُقتل»[2].

فإذا تقرر ما سبق، بقي أن نعرف أن تنفيذ هذا الحكم - عند القدرة عليه - من نصرة النبي ﷺ، فهو حق من حقوقه - عليه السلام -، وليس لأحد أن يتنازل عنه إلا هو بأبي هو وأمي، كما قال ابن تيمية - رحمه الله -: «النبي ﷺ كان له أن يعفو عمن شتمه وسبه في حياته، وليس للأمة أن تعفو عن ذلك»[3].

---

(١) السابق، ٢/ ٢١٤.

(٢) السابق، ٢/ ٢١٧.

(٣) الصارم المسلول، ٢/ ٤٢١.

الوقفة العشرون

لا تحسبوه شرّاً لكم، بل هو خير لكم

....

إن مما لا شك فيه: أن التطاول الذي أتى بها سفهاء الدنمارك وإخوانهم، قد أدمى قلوبنا وآلمنا، كما آلم كل مؤمن، ومثل هذه الأحداث تأتي وتكشف الحقائق، وتظهر السرائر؛ فكل إنسان يعرف مدى تأثره بما حصل، ويعرف حميته لرسول الله ﷺ، ويعرف كذلك ما قدّم وبذل فداء لرسول الله ﷺ ودفاعاً عنه، فدته أرواحنا ونفوسنا.

وعلى الرغم من هذا الضر والأذى الذي أصاب كل الموحدين في نبيهم ﷺ، إلا أن الأمر لا يخلو من خير، ولنا في سيرته - عليه السلام - درس عظيم؛ فقد تعرض - عليه السلام - لأشد ما يتعرض له الرجل العظيم الشريف من أنواع الأذى؛ ألا وهو الطعن في عرضه وفي أهل بيته الطاهرين؛ حيث اختلق المنافقون حديث الإفك، ورموا به عائشة أم المؤمنين والصحابي الجليل صفوان بن المعطل، ومن تأمل كلمات النبي ﷺ وهو يخطب في أصحابه على المنبر قائلاً: «يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي؟ والله، ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما يدخل على أهلي إلا معي»[1].

---

(١) البخاري، ٣/١٢٣ (٤١٤١)، مسلم، ٤/٢١٢٩ (٢٧٧٠).

أقول: من أصغى إلى هـذه الكلـمات بأذن قلبه، علِم مبلغ الألم الذي كان يشعر به ﷺ؛ فقـد احتمـل ما لا يُحتـمل، وعلى الرغم مـن هـذا الأذى الكبـير، إلا أن الله - سبـحانه وتعالى - فرّج عن رسوله - عليه السلام -، وعن أمنا - رضي الله عنها - وعن صفوان وباقي أصحاب رسول الله ﷺ، مبيناً أن ما جرى كان فيه خيرهم، فنزلت براءة عائشة وصفوان - رضي الله عنهما - من فوق سبع سماوات، وصار صك البراءة قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، وفيه قال ربنا - عز وجل -: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١] فهـو خـير «لمن سـاءه ذلك مـن المؤمنـين، وخاصة رسول الله ﷺ، وأبا بكر، وعائشة، وصفوان بن المعطل، رضي الله عنهم.

ومعنى كونه خيراً لهم: أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم؛ لأنه كان مبيناً ومحنة ظاهرة، وأنه نزلت فيه ثماني عشرة آية؛ كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ، وتسلية له، وتنزيه لأم المؤمنين رضوان الله عليها، وتطهير لأهل البيت، وتهويل لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجه أذناه، وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة، وفوائد دينية، وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها»[(١)]، فالأمر كما قال - عليه الصلاة والسلام -: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير! وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[(٢)].

ونحن إذ نستعرض فيما يلي بعض جوانب الخير من وراء حادثة الرسوم المسيئة، فلا يعني بحال أننا فرحنا بما حصل، حاشا وكلا! لكنه من باب استخلاص الفوائد

(١) تفسير الكشاف للزمخشري، ٤/ ٢٧٣. الطبعة الأولى لمكتبة العبيكان - السعودية (١٤١٨).
(٢) مسلم، ٤/ ٢٢٩٥ (٢٩٩٩).

والعبر والدروس، فمن ذلك:

١ - إظهار اليهود والنصارى على حقيقتهم، وسقوط الغرب من قلوب مَن تعلّق به من المسلمين: فقد أظهرت هذه الحادثة ما تكنُّ صدورهم، كما قال - تعالى -: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]؛ فالذي رسم قد بدت منه البغضاء، والذي نشر قد أبدى البغضاء، وحكومة الدنمارك التي برّرت ذلك تحت حجة «حرية التعبير»، وكذلك الدول الأوروبية وأمريكا، التي ساندتها إما كليّاً وبجلاء، وإما جزئيّاً؛ كل أولئك قد بدت منهم البغضاء، وصدق الله - جل في علاه - إذ يقول: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقد جاء ظهور هذه الحقيقة - التي لا تخفى على أهل الإيمان - في وقتٍ ارتفعت فيه الأصوات بالدعوة إلى التسامح والتعايش مع الغرب بما يحمله من قيم حضارية، دعوة تتذرع بمثل قول الله - تعالى -: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، وتتناسى قوله - سبحانه - في الآية التالية مباشرة: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩]، فأي محاربة في الدين أشد من الطعن في رسول رب العالمين ﷺ؟

ونحن - بحمد الله - لا نعارض هذه الدعوات من فراغ؛ فنحن مع التعايش والتسامح المبني على أسس الشرع؛ فإن عاش اليهود والنصارى في كنف دولة الإسلام، ملتزمين بالعهد الذي عليهم؛ فهؤلاء نبرهم ونقسط إليهم، ونوفي إليهم عهدهم وحقوقهم.

وأما إن نقضوا العهود والمواثيق، وطعنوا في ديننا، أو قاتلونا وقاتلوا إخواننا في مشارق الأرض ومغاربها، وسعوا في بلادنا بأنواع الفساد والإفساد؛ فليس بيننا وبينهم تعايش؛ بل مجاهدتهم بكل ما في الوسع، باليد واللسان والقلب، وليس وراء ذلك حبة خردل من إيمان.

٢ - جاءت هذه الحادثة بمنزلة ضربة قاسمة للمنافقين وأمثالهم، ممن يحمل دعوى التسامح والتعايش المخادعة، الذين يريدون تمييع الحقائق، وإزالة الفواصل بين معاني الإيمان والكفر، والحق والباطل، لدرجة أن يصبح اسم الكافر «الآخر»؛ تمهيداً لتحريف بسيط ليصبح لاحقاً «الأخ»!

وأي آخر وقد سماهم الله كفاراً ؟! ولكن يأبى القوم إلا أن يلْحَنوا بالقول ليعرفهم أهل الإيمان. لقد أرادوا تغيير المفاهيم بتكرار مثل هذه المصطلحات، فجاءت هذه الحادثة لتطيح بأوهامهم ومصطلحاتهم المخادعة، وتُثبِّت مفاهيم الإيمان؛ وصدق ربنا حيث قال: ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ [المنافقون: ٤].

٣ - ومن أعظم الفوائد: تأكيد معنى الولاء والبراء، وإظهار معالمه التي كادت أن تندرس؛ فقد كثرت المقالات واللقاءات والندوات في وسائل الإعلام المختلفة؛ بقصد هدم هذا المبدأ العظيم، الذي هو من أوثق عرى الإيمان كما في حديث: «أوثق عرى الإيمان: الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله»[(١)]؛ وذلك تحت دعاوى «الأخوة الإنسانية»، و«نبذ الكراهية»، و «التعايش مع الآخر»، فجاءت هذه الحادثة لترسخ هذا المعنى في القلوب.

---

(١) مسند الإمام أحمد، ٤/ ٢٨٦ (١٨٥٤٧) ولفظ المطبوع: «أوسط عرى الإيمان»، وحسنه الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة (٩٩٨)، (١٧٢٨).

٤ – ومن الفوائد العظيمة كذلك: أن هذه الحادثة كشفت عن مواطن القوة في هذه الأمة المرحومة، التي قد تضعف لكنها لا تموت، هذه المواطن التي كانت غائبة حتى عن بال أكثر الناس تفاؤلاً؛ وعلى الرغم مما في الأمة من ضعف، وعلى الرغم من النكبات التي تحل بها في المشرق والمغرب، إلا أنها انتفضت كالأسد الهصور انتفاضة رجل واحد؛ لتذب عن نبيها ﷺ.

وقد نشرت جريدة الرياض خلال الأزمة صورة وزير هندي مسلم، عرض في خطبة علنية أكثر من ١٠ ملايين دولار لمن يأتي برأس مَنْ رسم الرسوم. فالغرب سيعيد حساباته بلا شك؛ لأن الأحداث أثبتت أن المسلمين قد أصبحوا رقماً صعباً ومهمّاً، يؤثر في الساحة، وأن اليوم ليس كالأمس، وما محاولات الغرب احتواء الأزمة بإرسال مبعوثين إلى البلاد الإسلامية، وما إغلاق روسيا لصحيفة أعادت نشر الرسوم؛ إلا دليل على ما نقول، فصبراً يا أمتي ﴿**وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [**آل عمران**: ١٩٣].

٥ – ومن الفوائد المهمة: أن رد فعل الأمة لم يقف عند الشجب والاستنكار – كما جرت العادة – بل تعداه إلى العمل، والمقاطعةُ أبرز صوره. وقد كان من المبشرات أن المقاطعة لم تقتصر على جمهور المشترين؛ بل بادر الكثير من التجار من أهل الإيمان إلى التضحية، فأوقفوا التعامل في البضائع الدنماركية والنرويجية من تلقاء أنفسهم – لا تحت ضغط مقاطعة الجمهور – وتبعهم على ذلك آخرون، نسأل الله أن يجزل لهم المثوبة، وأن يجعل عملهم خالصاً لوجهه الكريم. وقد أوقفت التعامل أيضاً بعض الدول الإسلامية وتحملت بسببه أذى، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً.

٦ – من الفوائد كذلك: مظهر مشرف؛ إذ مع شدة الغضبة لم تخرج الجماهير عن

عقيدتها، ولم تنل من أي من الأنبياء الذين يقدسهم الغرب؛ لأن الإيمان بالأنبياء جزء من عقيدتنا، فهذا الدين دين عظيم، يضبط سلوك أتباعه حتى في أحلك الظروف.

٧ - ومن الفوائد: ما قام به الدعاة في مواقعهم المختلفة؛ من استثمار الحدث في دعوة المسلمين إلى تجديد عهد الإيمان مع الله - عز وجل -، وإلى متابعة سنة النبي ﷺ على كل حال، وكذلك نشر فضائله وشمائله - عليه السلام -، وربط الناشئة بها، وتذكيرهم أنه - بأبي هو وأمي - هو القدوة والأسوة لا اللاعبين والفنانين، الذين قد يعرف بعض شباب المسلمين أخبارهم أكثر من معرفة أخبار نبيهم - عليه السلام -، والله المستعان.

٨ - كذلك استُثمِر هذا الحدث في دعوة أهل الغرب إلى الإسلام؛ حيث طبعت عشرات ألوف المطبوعات التي تعرِّف بالنبي - عليه السلام - وبدين الإسلام؛ إذ قد أحدثت الضجة التي أثيرت بسبب الرسوم اهتماماً لدى الغربيين؛ للتعرف على المزيد عن النبي ﷺ، الذي أقام المسلمون الدنيا ولم يقعدوها من أجله.

٩ - وقد وجهت الأحداث رسالة حاسمة واضحة إلى العلمانيين والمنافقين من بني جلدتنا، الذين ما فتئوا ينشرون الفساد والدعوات الباطلة؛ ليعلموا أن السكوت على إساءاتهم له حدود.

١٠ - من الفوائد كذلك: البشارة بانتصار هذا الدين وظهوره على الدين كله؛ مصداقاً لقوله - تعالى -: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**﴾ [**التوبة**: ٣٣] و[**الفتح**:٢٨] و[**الصف**:٩]، وهو ما أكدّه نبينا ﷺ بقوله: «ليبلغن هذا الأمر مبلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا

الدين، بعز عزيز أو بِذُلِّ ذليل؛ يعز بعز الله في الإسلام، ويذل به في الكفر»[1].

والصراخ - كما يقال - على قدر الألم؛ فما قامت به الكثير من الدول الغربية من مساندة للدنمارك، ومحاولة تخفيف العبء عنها بإعادة نشر الرسوم في أكثر من بلد؛ كي تتفرق جهود المقاطعة، كما حاول كفار قريش تفريق دم النبي ﷺ بين القبائل؛ إنما يأتي لما يرونه ويدركونه جيداً من كون الإسلام يغزوهم في عقر دارهم بلا قتال، لا بالمهاجرين المسلمين فحسب؛ بل باعتناق الكثيرين في الغرب الإسلام؛ إذ تؤكد التقارير والإحصاءات الغربية أنه أسرع الأديان توسعاً وانتشاراً، وأنه سيكون بعد سنوات - بإذن الله - دين نصف أهل الأرض، هذا على الرغم من ضعف الدعوة إليه وضعف إمكاناتها. وهذا في مقابل الفشل الذريع للكثير من المنظمات النصرانية المدعومة بالمال الوفير في حملاتها التنصيرية. بل بسبب هذه الحادثة؛ أسلم كثير من الغربيين وفي الدنمارك خصوصاً؛ إذ دعتهم للنظر والبحث في هذا الدين.

١١ - من الفوائد التي توضع فوقها عشرات الخطوط: انكشاف الكثير من أهل البدع والأهواء والضلال؛ فإن أول من أثار هذه القضية هم أهل السنة أتباع السلف الصالح، ثم جاء مَن بعدهم على استحياء، فأين المدّعون لحب رسول الله ﷺ، المرتكبون البدع باسم حبه؟

نحن لا ننازع أحداً من المسلمين في دعواه حب النبي ﷺ؛ ولكننا نؤكد وجوب ضبط الحب بضوابط الشرع والسنة، والنأي به عن البدعة، وقد جاءت هذه الحادثة لتكشف الأمور وتظهر الحقائق، وهي أن الحب السني هو الذي قاد أصحابه للعمل

---

(١) المستدرك، ٤/ ٤٧٧ (٨٣٢٦)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

والمبادرة في الذب عن النبي ﷺ.

جاءت الحقائق لتكشف حقيقة الكثيرين من أهل البدع والغلو في النبي ﷺ، ولا شك أن بعضهم - من باب العدل - قد أدى بعض الدور، وأن بعضهم جاء تبعاً، بينما بقي بعضهم يميّع القضية، ويدعو إلى الحوار والتسامح، وكل هذه حقائق لا تنكر.

١٢ - من الفوائد كذلك: كشف أصحاب المنهج المنحرف ممن أصبح ديدنهم البحث عن مواطن الخلاف مع إخوانهم المسلمين؛ فكأن هدفهم - هدانا الله وإياهم - صار تتبع مواطن الخلاف وبثها ونشرها، فإن لم يكن لها وجود اخترعوها، في أي أمر وفي أي موضوع، نراهم يخالفون في مواطن الجهاد، ومواطن التعامل مع المخالفين، ووصل الأمر إلى مواطن نصرة النبي ﷺ بالمستطاع المقدور عليه، والله المستعان!

وحيث إن هذا المنهج قائم على الخلاف والردود والرد على الردود، فمن البدهي أن ينقسم أصحابه على أنفسهم، وينبغي لنا ألا ننشغل بكثرة الرد؛ لأنه لا يصح إلا الصحيح، والأيام كفيلة بإظهار الحقائق، قال - تعالى -: ﴿ **كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ** ﴾ [الرعد: ١٧].

الوقفة الحادية والعشرون

خاطرة في حقيقة الانتصار للنبي المختار

....

ما أجمل أن تغضب الأمة لنبيها، وتثور على من نال منه ﷺ! لكن الأجمل أن تقف مع نفسها لترى الجمال في هديه فتتبعه، وتثور على هجران سنته فتستقيم على طريقته، وما أعظم الأمة لـمّا قاطعت مَنْ شَتَمه واستهزأ به! وما أحراها بأن تقاطع كذلك كل إحداث في دينه وتنكبّ لسنته.

إن الانتصار للنبي المختار ﷺ يأخذ أشكالاً عديدة كما سبق، والانتصار لسنته ﷺ واحد منها بلا شك، وليس منها أبداً: الابتداع في دينه بما تهواه الأنفس، أو تركُ هديه لهدي غيره؛ بل هذا من خذلانه - عليه السلام - ومن التولي عن نصرته؛ فالبدعة تطمس السنة، وتقوض بنيانها، وتهدم أركانها، وما من مِعْوَلٍ أمضى في هدمها من معول البدعة، وما من رياح أطفؤ لسراجها من رياح المحدثات، وما أحدث الناس بدعة إلا أماتوا سنة، وما أحيوا ضلالة إلا فارقهم من الحق نصيب. وهذه المعادلة البسيطة مفهومة لكل من فتح الله بصيرته، ووقاه شر التعصب المقيت والتقليد الأعمى.

ولخطورة البدعة على الأمة في معاشها وعاقبة أمرها؛ حذر النبي ﷺ منها أشد

تحذير، فقال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين؛ تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ. وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[1].

ومما أحدثه الناس بعد انصرام القرون المفضلة التي زكاها النبي ﷺ: ما انتشر بينهم من الاحتفال بمولده الشريف ﷺ في شهر ربيع الأول، فهذا الأمر ما كان في حياته ﷺ، ولا في عهد خلفائه الراشدين، ولا صحابته الأكرمين، ولا التابعين، ولا في عهد أي من الأئمة الأربعة المتبوعين.

قال السيوطي - رحمه الله -: «أول من أحدث فعل ذلك صاحب إربل؛ الملك المظفر أبو سعيد كوكبري بن زين الدين علي بن بكتكين»[2]، وقد ولي إربل بعد معركة حطين عام ٥٨٣هـ. مما يعني أن قرابة ستة قرون مرت على الأمة من دون أن تعرف مثل هذا الاحتفال. ولهذا ذم هذه البدعة غيرُ واحد من العلماء. قال الإمام الفاكهاني المالكي (ت٧٣٤هـ) - رحمه الله -: «لا أعلم لهذا المولد أصلاً في كتاب ولا سنة، ولا ينقل عمله عن أحد من علماء الأمة الذين هم القدوة في الدين، المتمسكون بآثار المتقدمين، بل هو بِدعة أحدثها البطالون، وشهوة نفسٍ اغتنى بها الأكالون»[3].

وقال الإمام ابن الحاج المالكي (ت٧٣٧هـ) - رحمه الله -: «ومن جملة ما أحدثوه من البدع، مع اعتقادهم أن ذلك من أكبر العبادات وإظهار الشعائر: ما يفعلونه في شهر ربيع الأول من مولد»[4]، وقال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «اتخاذ

(١) سنن أبي داود، ٥/ ١٣ (٤٦٠٧)، وصححه الألباني.

(٢) الحاوي للفتاوي للسيوطي، ١/ ٢٧٢.

(٣) المولد النبوي بين المشروعية والبدعية لفهد عبد الله، ١/ ٢٤.

(٤) المدخل، ١/ ٤٨٠.

موسـم غير المواسـم الشـرعية كبعض ليـالي شـهر ربيع الأول - التي يقال: إنها ليلـة المولد - . . . من البدع التي لم يستحبها السلف ولم يفعلوها، والله - سبحانه وتعالى - أعلم»[1].

وسبب إفرادنا لهذه المسألة بالكلام: أن الأمر قد يلتبس على كثير من الناس؛ فلا يستطيعون الجمع بين وجوب محبة النبي ﷺ والمنع من الاحتفال بمولده، الذي ما احتفل به كثير من الناس إلا لفرط محبتهم له، عليه السلام.

ولعله من المناسب هنا أن نُذّكر بأن النبي ﷺ نهى صاحبه الجليل معاذ بن جبل - رضي الله عنه - عن بدعة منقولة عن أهل الكتاب، فيها مظنة التعظيم والمحبة لرسول الله ﷺ - كما في بدعة الاحتفال بالمولد النبوي - فخُيِّل إليه أن رسول الله ﷺ أحقُّ من يُفعل له ما يَفعل أهلُ الكتاب لعظمائهم، كما خُيّل للمحتفلين بالمولد أن رسول الله ﷺ أحق بالاحتفال بميلاده من غيره؛ وذلك أنه «لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي ﷺ، قال: «ما هذا يا معاذ»؟ قال: أتيت الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك! فقال رسول الله ﷺ: «فلا تفعلوا! فإني لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»[2].

فهذا الصحابي الجليل استحسنت نفسه أن يقوم بأمر رآه عند أهل الكتاب، وكان قصده حسناً ومرماه طيباً، ولكن النبي ﷺ نهاه، وبين له أن التشريع إنما يؤخذ منه هو - عليه الصلاة والسلام - لا من غيره، وبذات القدر يقال لهؤلاء الذين يحتفلون بمولده ﷺ محبة له ورغبة في تعظيمه: إن الدين ما شرّعه نبينا محمد ﷺ، ولا نجد فيه احتفالكم

---

(١) مجموع الفتاوى، ٢٥/ ٢٩٨.

(٢) سنن ابن ماجه، ١/ ٣٢٣ (١٨٥٣)، وصححه الألباني.

هذا؛ ولو أنه فعله، أو فعله سلفنا الصالح، لكنا أول المحتفلين.

قال ابن الحاج - رحمه الله -: «واتباع السلف أولى، بل أوجب من أن يزيد نية مخالفة لما كانوا عليه؛ لأنهم أشد الناس اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ، وتعظيماً له ولسنته ﷺ، ولهم قدم السبق في المبادرة إلى ذلك، ولم ينقل عن أحد منهم أنه نوى المولد، ونحن لهم تَبَع؛ فيسعنا ما وسعهم»[1].

وقال ابن تيمية - رحمه الله -: «ولو كان هذا خيراً محضاً أو راجحاً؛ لكان السلف - رضي الله عنهم - أحق به منا؛ فإنهم كانوا أشد محبة لرسول الله ﷺ وتعظيماً له منا، وهم على الخير أحرص، وإنما كمال محبته وتعظيمه في متابعته وطاعته، واتباع أمره وإحياء سنته باطناً وظاهراً، ونشر ما بُعِث به، والجهاد على ذلك بالقلب واليد واللسان؛ فإن هذه هي طريقة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان»[2].

وكلامهما - رحمهما الله - يكتب بمداد من ذهب، فينبغي لمن يحتفل بالمولد ألا يتعلق بما ورد في كلام بعض الفضلاء من المتأخرين، ممن جَوَّزَ هذا الاحتفال؛ فالأمة كلها طوال ستة قرون تقريباً لم تعرف مثل هذا الاحتفال، وكان يسع المتأخرين ما وسع المتقدمين - وبخاصة السلف الصالح - فليسوا أحرص منهم على متابعة النبي ﷺ، ولا أكثر حبّاً له؛ بل إن كمال المحبة يستلزم كمال المتابعة.

إن الانتصار للنبي ﷺ من المستهزئين والمسيئين، يجب أن يكون بمحبته محبةً صادقة.

---

(١) المدخل، ١/ ٤٩٢.

(٢) اقتضاء الصراط، ١/ ٢٩٥.

ومن أهم ما يدل على هذه المحبة: متابعته ﷺ في قوله وفعله وتركه، وعدم التقدم بين يديه بقول أو فعل، ومعرفة أن حاله التي كان عليها - في فعله وتركه - هي أكمل الأحوال. أما الاكتفاء من المحبة بالعاطفة التي لا يعقبها اتباع وتأسٍّ؛ فليست هذه سبيل النصرة لخاتم المرسلين، ولئن أثيب صاحبها على محبته؛ فإن هذا لا يمنع عنه العقوبة على التقصير سـواء في الدنـيا أو في الآخرة، إلا أن يغفر الله له؛ ومما يدل على ذلك ما رواه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «أن رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يُلقب حماراً، وكان يُضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأُتيَ به يوماً فأَمر به فجُلِد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبي ﷺ: «لا تلعنوه، فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله»»[1].

فهذا الصحابي جاء بالجانب العاطفي من المحبة، وعجز عن شيء في الجانب العملي، فنفعته محبته بشهادة النبي ﷺ، لكنها لم تمنع عنه عقوبة التقصير في جانب العمل. والمحبة الكاملة: أن يجمع المسلم بين العاطفة والاتباع، وليست المحبة العاطفية داعية إلى التجرد عن الاقتداء ولا العكس، وإغفال أي من الأمرين مغبَّته عظيمة؛ فلا يصح إيمان بلا محبة، ولا تعصم المحبة بلا متابعة من العقوبة.

ومن هنا يقال لمن يبتدع في دين الله - تعالى - تلك البدع، التي منها الاحتفال بمولده ﷺ: كمِّل محبتك لرسول الله ﷺ واقتدِ به؛ لتجمع بين الحسنيين؛ فما يطمع الأعداء فينا - معشرَ المسلمين - بأكثر من أن نهجر هدي نبينا ﷺ ونتبع سنَنَهم؛ إذ الاحتفال بالموالد من سنن اليهود والنصارى، الذين يقيمون الاحتفالات بمولد أنبيائهم وأحبارهم ورهبانهم، فوافقهم من يحتفل بالموالد من المسلمين؛ ليصدق الواقع ما أخبر به - عليه

(١) صحيح البخاري، ٤/ ٢٤٧ (٦٧٨٠).

الصلاة والسلام - من أن أمته ستتبع اليهود والنصارى بلا عقل ولا تبصر، حتى لو دخلوا جحر ضب خرِب دخلوه، وفي ذلك: يقول - عليه الصلاة والسلام - مخبراً ومحذراً: «لتتبعن سنن من كان قبلكم، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم». قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»[1].

إن الاحتفال الباطل يفرّغ الطاقات، ويضيع الجهود، ويشغِل عن الاحتفال الحق؛ وهو الاقتداء بالنبي ﷺ، ويحصر الاحتفال به في مظاهر لا تسمن ولا تغني من جوع.

وإن حصر الاحتفال في يومٍ بعينه أو شهر بعينه، يدل على تفريط في حق النبي ﷺ باقي العام، وهو ما يقرره بعض من يجيز الاحتفال، بل يجعله مسوِّغاً لمخالفة المتأخرين للمتقدمين بإقامته، فيقول: «وما كان المسلمون الأولون في القرون الثلاثة الأولى يفكرون في تعيين زمن خاص يذكرون فيه الناس بعظمة سيدنا محمد ﷺ؛ لأنهم يحتفلون به في كل وقت وحين. فلما أضحت الحياة بعد ذلك لاهية والقلوب سقيمة؛ احتاج الناس إلى الذكرى».

وأي فائدة ترجى من التذكرة في يوم واحد من السنة؟!

إن الاحتفال - بمعنى الاهتمام والعناية - ينبغي ألا يكون في يوم من الأيام دون غيره فيُخصّ به، ولا في شهر دون سواه، بل ينبغي أن يكون في كل زمان ومكان؛ نصراً لسنته ﷺ وإعلاء لهديه، فبهذا وحده - لا سواه - يكون الاحتفال بالنبي ﷺ، وهو ما فعله الصحابة الكرام والسلف الصالح، وهو الواجب علينا كذلك.

ونحن إذ ننكر على من يحتفلون بمولد النبي ﷺ، فلا ننتقص أبداً من محبتهم

(١) صحيح البخاري، ٤/ ٣٦٨ (٧٣٢٠)؛ صحيح مسلم، ٤/ ٢٠٥٤ (٢٦٦٩).

له - عليه السلام -؛ بل نحسن الظن بهم، ونحسب أنه ما دفعهم لهذا إلا حبهم له - عليه السلام -؛ ولكننا نقول: إنهم أساؤوا من حيث أرادوا الإحسان، وهذا من عدل أهل السنة وإنصافهم، قال ابن تيمية - رحمه الله -: «والله قد يثيبهم على هذه المحبة والاجتهاد، لا على البدع؛ من اتخاذ مولد النبي ﷺ عيداً»[1]، وقال: «إذ الأعياد شريعة من الشرائع، فيجب فيها الاتباع لا الابتداع»[2]. ولو لم تكن من الشرائع؛ فإن محذور التشبه بمن نُهينا عن التشبه بهم في المولد قائم؛ فاجتمع الابتداع والتشبه في هذا الاحتفال المحدَث.

وكما أننا لا نطعن بذلك في عاطفة المسلمين، الذين يحتفلون بمولده ﷺ؛ فإننا لا نقبل أبداً أن ينتقص أحد من محبتنا لرسول الله ﷺ أو يطعن فيها؛ لقولنا ببدعية المولد، فما قلنا بذلك إلا نصرة لسنته ﷺ أن تُبدَّل، ولشريعته أن يزاد فيها ما ليس منها؛ وما دفعنا لذلك إلا حبنا له ﷺ؛ فحالنا مع من يرمينا بمثل ذلك حالُ من أنكر المولد من العلماء المتقدمين مع أصحاب الاحتفال في زمانهم. قال ابن الحاج - رحمه الله -: «يعتقدون أنهم في طاعة، ومن لا يعمل عملهم يرون أنه مقصِّر بخيل؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون!»[3].

إننا ندعو من يحتفلون بالمولد أو يجيزون الاحتفال به إلى كلمة سواء؛ فإن لم يمكن أن يوافقونا على بدعية هذا الاحتفال من أصله، فلا أقل من أن نتفق جميعاً على إنكار كل صور المنكرات التي ترافق كثيراً من هذه الاحتفالات، ويأتي في مقدمتها ما قد يقع فيها من غلو في النبي ﷺ، على الرغم من نهيه عن ذلك بقوله - عليه السلام -: «لا

---

(١) اقتضاء الصراط، ١/ ٢٩٤.

(٢) السابق.

(٣) المدخل، ١/ ٤٩٢.

تطروني كما أُطري عيسى ابن مريم، وقولوا: عبد الله ورسوله»[1]. وأقبح هذا الغلو وأشده ما يكون مصحوباً بأقوال شركية؛ كالاستغاثة بالنبي ﷺ، وطلب المَدَد منه، أو وصفه بما هو من صفات الله - عز وجل - ؛ كقول صاحب البردة:

فإنّ مِن جودِك الدنيا وضرّتها ... ومن علومِك علمُ اللّوح والقلمِ

ثم يأتي بعد ذلك أن نتفق جميعاً على إنكار ما يقع في الموالد؛ من اختلاط وتبرج، ورقص وغناء، وتناول للمسكر، وغير ذلك مما لا يشك عاقل في حرمته. فإن نحن فعلنا ذلك؛ انحصر الخلاف فيما ينبغي ألا يتجاوزه من اختلاف بشأن مشروعية الاحتفال، فيبدي كل فريق ما عنده من حجج، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

(١) صحيح البخاري، ٤/٢٥٨ (٦٨٣٠).

الوقفة الثانية والعشرون

قد نصره الله: انتقام الله لرسوله ﷺ

....

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]، وعدٌ من الله - تعالى - لعباده المؤمنين، أن يدافع عنهم ويرد شر أعدائهم وينتقم لهم، بل قال: «من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب»[١]، فكيف بالمرسلين الذين سبقت كلمته بنصرهم وإعزازهم، كما قال الله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال - تعالى -: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال الله - عز وجل -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧]؟

فإن كان هذا الوعد من الله - تعالى - للمؤمنين عامة والرسل خاصة، بالدفاع عنهم ونصرهم؛ فكيف يكون نصره لقدوة المؤمنين وإمام المرسلين محمد ﷺ؟

لا شك أن نصره لحبيبه ﷺ أظهر من نصره لغيره. قال الله - تعالى -: ﴿وَاللَّهُ

(١) حديث أبي هريرة القدسي عند البخاري (٦١٣٧).

يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال - تعالى -: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]، وقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، ولعلي أنقل من صور انتصار الله - تعالى - لنبيه ﷺ ممن ظلمه، وانتقامه ممن آذاه، مشاهدَ تشفي صدور المؤمنين، فمنها:

المشهد الأول:

أن عتبة بن أبي لهب كان يسب النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «اللهم سلِّط عليه كلبك!»، فخرج في قافلة يريد الشام، فنزل منزلاً، فقال: إني أخاف دعوة محمد ﷺ، قالوا له: كلا! فحطوا متاعهم حوله وقعدوا يحرسونه، فجاء الأسد فانتزعه فذهب به[1].

المشهد الثاني:

قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: «كان النبي ﷺ يصلي في ظل الكعبة، فقال أبو جهل وناس من قريش - ونحرت جزور بناحية مكة - فأرسلوا فجاؤوا من سلاها وطرحوه عليه، فجاءت فاطمة فألقته عنه، فقال: «اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش!»؛ لأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأُبي بن خلف، وعقبة بن أبي معيط. قال عبد الله: فلقد رأيتهم في قليب بدرٍ قتلى»[2].

المشهد الثالث:

(١) الحاكم في المستدرك، ٢/ ٥٨٨، (٣٩٨٤)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه البخاري، ٣/ ١٠٧٣، (٢٧٧٦)، ومسلم، ٣/ ١٤١٨، (١٧٩٤).

أقبل أُبي بن خلف يوم أحد إلى النبي ﷺ يريده، فاعترض رجال من المؤمنين، فأمرهم رسول الله ﷺ فخلوا سبيله، فاستقبله مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار، ورأى رسول الله ﷺ ترقوة أُبي من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة، فطعنه بحربته، فسقط أُبي عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم، فكسر ضلعاً من أضلاعه، فأتاه أصحابه وهو يخور خوار الثور، فقالوا له: ما أعجزك؛ إنما هو خدش؟! فذكر لهم قول رسول الله ﷺ: «بل أنا أقتل أُبيّاً» ثم قال: والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز؛ لماتوا أجمعين، فمات أُبي إلى النار(1).

المشهد الرابع:

كان أبو لهب من أشد الناس عداء لرسول الله ﷺ وإيذاء له، ولم يكن ممن حضر بدراً؛ ولكن الله - تعالى - سلّط عليه بعدها بسبع ليال داء عضالاً يشبه الطاعون، يسمى بالعدسة، فقتله، ولقد تركه ابناه ليلتين أو ثلاثاً ما يدفنانه حتى أنتن، فقال رجل من قريش لابنيه: ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن في بيته؟! فقالا: إنا نخشى هذه القرحة. وكانت قريش تتقي العدسة كما تتقي الطاعون، فقال رجل: انطلقا فأنا معكما، قال: فوالله ما غسلوه إلا قذفاً بالماء عليه من بعيد، ثم احتملوه فقذفوه في أعلى مكة إلى جدار وقذفوا عليه الحجارة(2).

المشهد الخامس:

عن عبد الرحمن بن أبي بكر - رضي الله عنهما - قال: «كان فلان يجلس إلى النبي ﷺ، فإذا تكلم النبي ﷺ بشيء اختلج بوجهه، فقال له النبي ﷺ: «كن كذلك» فلم يزل

(1) المستدرك، ٣/ ٣٥٧، (٣٢٣٦)، قال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم.
(2) المستدرك، ٣/ ٣٦٣، (٥٤٠٣).

يختلج حتى مات»[1].

المشهد السادس:

عن أنس قال: كان رجلٌ نصرانيّاً، فأسلم على عهد رسول الله ﷺ، وقرأ البقرة وآل عمران. قال: فكان يكتب لنبي الله ﷺ. قال: فعاد نصرانيّاً، فكان يقول: ما أرى يحسن محمدٌ إلا ما كنت أكتبُ له، فأماته الله فأقبروه، فأصبح قد لفظته الأرض. قالوا: هذا عمل محمد وأصحابه؛ إنما لم يرضَ دينهم نبشوا عن صاحبنا، فألقوه. قال: فحفروا له فأعمقوا، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا عمل محمد وأصحابه نبشوا عن صاحبنا فألقوه. قال: فحفروا له فأعمقوا في الأرض ما استطاعوا، فأصبح وقد لفظته الأرض، فعلموا أنه ليس من الناس، وأنه من الله - عزوجل - فألقوه[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - معلقاً على هذا الحديث: «فهذا الملعون الذي افترى على النبي ﷺ: أنه ما كان يدري إلا ما كتب له؛ قصمه الله وفضحه بأن أخرجه من القبر بعد أن دُفِن مراراً، وهذا أمر خارج عن العادة يدل كل أحد على أن هذا كان عقوبة لما قاله، وأنه كان كاذبا؛ إذ كان عامة الموتى لا يصيبهم مثل هذا، وأن هذا الجرم أعظم من مجرد الارتداد؛ إذ كان عامة المرتدين يموتون ولا يصيبهم مثل هذا، وأن الله منتقم لرسوله ﷺ ممن طعن عليه وسبه، ومظهر لدينه ولكذب الكاذب؛ إذ لم يمكن الناس أن يقيموا عليه الحد. ونظير هذا ما حدّثناه أعداد من المسلمين العدول أهل الفقه والخبرة؛ عمّا جربوه مرات متعددة في حصر الحصون والمدائن التي بالسواحل

(١) المستدرك، ٢/ ٦٧٨، (٤٢٤١)، قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وضعّفه بعض أهل العلم.

(٢) رواه البخاري بألفاظ مقاربة، ينظر الصحيح (٣٤٢١).

الشامية؛ لما حصر المسلمون فيها بني الأصفر في زماننا، قالوا: كنا نحن نحصر الحصن أو المدينة الشهر أو أكثر من الشهر وهو ممتنع علينا، حتى نكاد نيأس؛ إذ تعرض أهله لسب رسول الله ﷺ والوقيعة في عرضه، فعجلنا فتحه، وتيسر ولم يكد يتأخر إلا يوما أو يومين أو نحو ذلك، ثم يُفتح المكان عنوة ويكون فيهم ملحمة عظيمة. قالوا: حتى إن كنا لنتباشر بتعجيل الفتح إذا سمعناهم يقعون فيه، مع امتلاء القلوب غيظاً بما قالوه فيه. وهكذا حدثني بعض أصحابنا الثقات أن المسلمين من أهل الغرب حالهم مع النصارى كذلك، ومن سنة الله: أن يعذب أعداءه؛ تارة بعذاب من عنده، وتارة بأيدي عباده المؤمنين»[1].

المشهد السابع:

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب! قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: مالك؟! فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً»[2].

المشهد الثامن:

لما آذى أهل الطائف رسول الله ﷺ، وهو أشد ما لاقى من الأذى. وفي هذا تقول عائشة - رضي الله عنها -: «إنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم أشد من يوم

(١) الصارم المسلول، ١/ ١٢٢.

(٢) مسلم، ٤/ ٢١٥٤، (٢٧٩٧).

أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت؛ فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت؛ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»[1].

فانظر إلى العقاب الأليم الذي كان سيحل عليهم لولا حلم النبي ﷺ وعفوه عنهم، ولا غرابة؛ فالله - تعالى - يقول: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ [طه: ٨١].

مشاهد متفرقة:

وهي لأقوام خُصّوا بالعذاب دون بقية المشركين بأيدي المؤمنين:

- فمنهم: ابن خطل، الذي ارتد وجعل يهجو النبي ﷺ ويفتري عليه، فلما كان فتح مكة، دخل ﷺ وعلى رأسه المغفر، وقال كلمته المشهورة: «ما تظنون أني فاعل بكم؟»، إلى أن قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»؛ غير أنه أهدر دم أربعة. قال: «ولو وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة»، وفي صحيح البخاري: قال أنس: فجاء رجل فقال: إن ابن خطل متعلق بأستار الكعبة؟ فقال: «اقتلوه»[2].

---

(١) البخاري، ٣/ ١١٨٠، (٣٠٥٩)، ومسلم، ٣/ ١٤٢٠، (١٧٥٩)

(٢) البخاري (١٧٤٩).

- ومنهم: جاريتان مملوكتان كانتا تتغنيان بهجائه؛ أهدر دمهما، وقتل إحداهما، واختفت الثانية إلى أن استؤمن لها.

- ومنهم: كعب بن الأشرف؛ أرسل رسول الله ﷺ إليه محمد بن مسلمة - رضي الله عنه -؛ والقصة مشهورة.

- ومنهم: العصماء بنت مروان؛ فمما اشتهر عند أهل السير قتل عمير بن عدي الخطمي لها، لمّا بلغه أذاها للنبي ﷺ، ورووا أن النبي ﷺ قال لمّا علم ما فعل: «إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله بالغيب؛ فانظروا إلى عمير بن عدي»[1].

- ومنهم: اليهودية المذكورة في حديث علي - رضي الله عنه -: «أن يهودية كانت تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فخنقها رجل حتى ماتت، فأبطل رسول الله ﷺ دمها»[2].

- ومنهم: أم الولد المذكورة في حديث ابن عباس، وفيه: أن أعمى كانت له أم ولد تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فينهاها فلا تنتهي، ويزجرها فلا تنزجر، قال: فلما كانت ذات ليلة جعلت تقع في النبي ﷺ وتشتمه، فأخذ المغوَل - سيف قصير - فوضعه في بطنها واتكأ عليها فقتلها، فوقع بين رجليها طفل فلطخت ما هناك بالدم، فلما أصبح ذُكِر ذلك لرسول الله ﷺ، فجمع الناس فقال: «أنشد الله رجلاً فعل ما فعل لي عليه حقٌّ إلا قام»، فقام الأعمى يتخطى رقاب الناس وهو يتزلزل، حتى قعد بين يدي النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أنا صاحبها، كانت تشتمك وتقع فيك فأنهاها

(١) ينظر الصارم المسلول ١/ ١٠١. وقد ذكر أدلة القرآن على قتل الساب، ثم ذكر أدلة السنة، وفيها ما استقام سنده، وليس فيها شيء إلاّ وهو صالح للاعتضاد.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٦٢)، وعنه البيهقي (٩/ ٢٠٠). قال الألباني: وإسناده صحيح على شرط الشيخين (إرواء الغليل ٥/ ٩١).

فلا تنتهي، وأزجرها فلا تنزجر، ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين، وكانت بي رفيقة، فلما كانت البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك، فأخذت المغول فوضعته في بطنها واتكأت عليها حتى قتلتها، فقال النبي ﷺ: «ألا اشهدوا أن دمها هدر»[1].

ولم يزل رب العز والجلال ينتقم لنبيه ﷺ ممن نال منه وآذاه، قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: «والله منتقمٌ لرسوله ممن طعن عليه وسبَّه، ومظهرٌ لدينِه، ولكذبِ الكاذب، إذا لم يمكن الناسَ أن يقيموا عليه الحد»[2].

ومن ذلك: مشهد قتل المخرج الهولندي ثيو فان جوخ، المستطيل على الإسلام ونبي الإسلام ﷺ من قبل الشاب المغربي، الذي أطلق عليه الرصاص من دون أن يعبأ بتوسلاته الذليلة، ثم ذبحه ووضعه على قارعة الطريق، وثبت على جسده بالسكين رسالةً جعلته عبرة.

فهذه بعض المشاهد من انتصار الله - تعالى - لنبيه ﷺ، وكما قد رأيت أضرباً من نصره؛ فلله - تعالى - جنود السماوات والأرض، ينصره بما شاء منها، كما نصره بالرعب، ونصره بالصبا، وقد صحت بذلك الآثار، كما نصره في مواطن كثيرة، وكان عدوه أكثر منه عدة وعدداً، وانتقم له ممن عاداه.

وإن تأخر العذاب عمّن أساء إليه في بعض الأحيان؛ فإن ذلك تقدير منه تعالى؛ ليأخذ من آذى نبيه في يومٍ شديدٍ بأسه، ولَعَذابُ الآخرة أشد وأبقى.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٦١)، والنسائي (٢/ ١٧١). قال الألباني في الإرواء (٥/ ٩٢): إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) الصارم المسلول، ١/ ١٢٢.

الوقفة الثالثة والعشرون

في الختام.. عَوْدٌ على بَدْءٍ

....

لا يفوتنا قبل الختام أن نعيد تأكيد حقيقة ينبغي ألا تغيب عن الأذهان، وهي أن اجتماع الأمة وتوحّدها على مواجهة التحديات الطارئة - من أمثال حوادث الطعن والتطاول - لا يمكن بحال أن تكون لوحدها السبيلُ للرجوع بالأمة إلى سابق عهدها من العزة والتمكين؛ بل إن السبيل قد حددها النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ حيث قال: «حتى ترجعوا إلى دينكم»، أي: بكل شرائعه وأحكامه، كما قال - عز من قائل -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، قال ابن كثير - رحمه الله -: «يقول - تعالى - آمراً عباده المؤمنين به المصدّقين برسوله: أنْ يأخذوا بجميع عُرَى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره، ما استطاعوا من ذلك»[1].

إن عودة الأمة إلى ربها عودةً صادقةً ضرورةٌ ملحةٌ لا خيار لها فيها؛ فهذه طريق سعادتها في الدنيا والآخرة، وطريق عزتها ورفعتها في الدنيا والآخرة، ولا طريق لها سواها، وقد جربت الأمة كل الطرق والسبل؛ فانحاز فريق منها جهة الشرق، وانحاز فريق آخر قبل الغرب، على الرغم من أنها أمة وسط لا شرقية ولا غربية، ولم تجنِ الأمة

---

(١) تفسير ابن كثير، ٢/ ٢٧٣.

طوال عقود من ذلك الانحياز إلا الضياع والشتات، وإنه لمن العجيب أن تكون أحداث التاريخ القريب والبعيد، كلها شاهدة على أن عز الأمة ما كان لها إلا عندما انحازت إلى دين ربها، وتمسكت بكتابها وسنة نبيها، وأن بُعدَها عنهما ما زادها إلا ذُلاً وهواناً، ثم تظل تغمض عينيها عن هذه الحقيقة الناصعة، وتتخذها وراءها ظهرياً، وتتخبط ذات اليمين وذات الشمال!

فقد آنَ للأمة أن تصطلح مع الله - عز وجل -، وتجدد عهد الإيمان والولاء؛ فتنصر دين ربها، وترفع راية التوحيد من جديد، فعندها - وعندها فقط - ينصرها المولى تبارك وتعالى، ويكبت عدوها، كما قال عز من قائل: ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، وقال: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

ختاماً؛ أسأل الله - عز وجل - أن يبرم لأمة محمد ﷺ أمر رشد؛ يعز به أهل ولايته وطاعته، ويذل به أهل محادته ومعاندته، وأسأله - سبحانه وتعالى - أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به كاتبه وقارئه والمسلمين، في الدنيا و﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩].

هذا والله أعلم وأحكم، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلِّ اللهم وسلِّم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فهرس الموضوعات







رسوخ علمي .. والتزام منهجي.
مكتب مجلة البيان . الرياض ١١٤٩٦ ص.ب ٢٦٩٧٠
www.albayan-magazine.com
Sales@albayan-magazine.com
هاتف ٤٥٤٦٨٦٨